

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190626

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ١-٢/٨٩٢٥٤٣^ع Accession No. ١٦

Author جرجي زيدان

Title المملوك النصارى ١٩٣١

This book should be returned on or before the date last marked below.

رواية

الملك أبو علي الشيباني

تاريخية أدبية

تتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالها
في النصف الأول من هذا القرن
ومن أبطالها الأمير بشير الشهابي ومحمد علي باشا
وابراهيم باشا وأمين بك

تأليف

عزجي زيدان

منشور الهلال

مطبعة النهضة

بمصر سنة ١٩٣١

الفصل الاول

جبل لبنان

هو سلسلة جبال شاذة خضبة الاقليم جيدة الهواء يشرف على بحر الروم وتفصله عنه سواحل سوريا . وهو جبل أهل تكسوه المزارع والفياض ويلبسه الثلج عمامة بيضاء على مدار السنة . وقد كانت حكومته الى منتصف القرن الماضي في قبضة امراء من عشائر مختلفة ينتهي نسب أكبر عشيرة منهم الى لؤي بن كعب من قريش وهؤلاء هم الامراء الشهابيون أو بنو شهاب وقد حكم الامراء الشهابيون في لبنان أكثر من سائر العشائر الاخرى ومركز حكومتهم غالباً بلدة دير القمر . وهي واقعة غربي الجبل المذكور في سفح مشرف على واد خصب يفصلها عن سفح آخر مقابل له ويحدق بها كغيرها من قرى لبنان بساتين مغروسة بالكرم والتين والتوت وغيرها

ففي أواخر القرن الثامن عشر اتصلت امارة هذا الجبل بالامير بشير الشهابي المعروف بالمالطي والمشهور بعلمه المهمة والشجاعة وعظم الهبة حتى ان كثيرين كانوا لا يقوون على التأمل في وجهه والوقوف بين يديه أو التكلم في حضرته بغير ان يقع الرعب في قلوبهم والرعدة في فرائصهم مع ما عرف به اللبنانيون من قوة البدن ورباطة الجأش

وكان في السفح المقابل لدير القمر قرية صغيرة تدعى بيت الدين فيها معبد لطائفة الدروز فابتاعها الامير بشير وابتنى فيها دوراً ومنتزهات له ولاولاده واستجلب اليها المياه فاصبحت من أبهى المنتزهات منظراً وأحسنها هواء

وقد عرف الامير بشير بتيقظه الدائم وتعهدده راحة الرعية وكان له فراسة خاصة في معرفة الاشخاص واطوارهم فكثيراً ما كان يكتشف الجاني بمجرد النظر اليه وتأمله حركاته ويروون عنه أحاديث أشبه بالخرافات منها بالحقائق يتحدث بها العامة والخاصة . وقد كان في جملة مساعيه لحفظ السلام ومنع التصدي انتقاء رجال اختر شجاعهم وحذقهم وبهم في تلك الاودية يتربصون

في غابها يراقبون حركات الناس فاذا خرج أحد في حاجة من قرية الى أخرى تراقب عيون اولئك المتربصين حركاته وربما راققوه كل طريقه وهو لا يعلم وفي صباح الغد يأتون الى الامير ويخبرونه بما شاهدوه وعلموه فكان بذلك على بينة من جميع طرق رعيته . وكان ذا ذاكرة وقادة لا تفوته فائنة حتى قيل انه موجود في كل مكان . فساد الامن على عهده في جبل لبنان حتى ان النساء والاطفال كانوا يخرجون ليلا ونهاراً وفي أيديهم المال يسافرون من بلد الى آخر ومن مقاطعة الى أخرى لا يخشون حرجاً

الفصل الثاني

طارق مفاجيء

وكان بجوار بيت الدين دير منفرد فيه جماعة من الرهبان يقضون بعض نهارهم في العبادة والبعض الآخر في حرث حقول الدير التي يستغلون منها قمهم وزيتهم وخمرهم وسائر حاجات طعامهم

ففي مساء ذات يوم من أيام شهر (ديسمبر) ك ١ سنة ١٨١٢ بعد ان قضى الرهبان معظم نهارهم في جرف الثلوج المتراكمة على سطوح الدير ودلكها بالمحادل دخلوا غرفة من غرفه قد أوقدوا فيها حطباً واحدقوا بتلك النار يستدفئون ويتسامرون والباب مقفل عليهم وهم متسربلون بعباءات مشدودة بمناطق حول أوساطهم . وكان يعترض حديثهم هزيم الرعد ولمعان البرق وهطول المطر والبرد المتساقط على جدران الدير ونوافذه وقصف الرياح الزوبعية التي تكثر في فصل الشتاء

فقال رئيسهم قد سمعت اليوم حديثاً اقلقني فهل طرق آذانكم فقالوا وما ذلك قال بلغني ان اثنين من بني العلوف من قرية بسكتنا تعرضا لبطيرك الكاثوليك أغناطيوس صروف الدمشقي بالقرب من قرية زوق مكاييل وقتلاه وقد علمت ان الامير بشيراً متكدر من ذلك وقد سعى في مقاصة المذنبين

فقال أحد الرهبان كيف يحدث مثل هذا في امارة الامير بشير إلا اذا كان بتواطؤ منه ولا يغرنك ما سمعته عن كدره فان الشهابيين لا يهمهم قتل كل البطارقة لأنهم ليسوا من دينهم

فقاطعه الرئيس بقوله أظنك لا تعلم ان الامير قد اعتنق الديانة المسيحية سرًا فقال أحدهم أصحيح ما تقول ولماذا هذا التستر إذا أليس الاولى به اعلان تنصره والتصريح به والا فهو مخالف لقول الانجيل

فقال الرئيس لا يخفى عليكم انه يترتب على اعلان تنصره اضرار مادية في مصلحته فضلا عن كره بنى شهاب عموماً له لاتصال نسبهم بقبيلة قريش . وكم عزل وولى على عهد احمد باشا الجزار بسبب ذلك

فقال راهب كيف يكون مسيحياً ولم نشاهده يزور كنيسة لقضاء الفروض النصرانية

فقال الرئيس . ان الامير لا يفغل عن واجباته ابان الصلاة المفروضة في ديننا وقد خصص غرفة محتبئة من غرف سرايته جعلها كنيسة يصلي فيها سرًا ولا يعرف بذلك الا أفراد قليلون فان بابها مكسو بما يشبه لون الحائط حتى لا ينتبه الناظر الى ان في ذلك الحائط باباً

فقال راهب حار الايمان لا يليق بنا ان نرائي في اعتقادنا ونشكر مخلصنا رغبة في مصلحة ديننا

فقاطعه الرئيس قائلاً اخفض صوتك لئلا يبلغ قولك مسامع الامير فنقع في شر أقوالنا

فقال الراهب مقهقهة أين نحن وأين الامير بشير ؟ أليس بيننا وبينه أكثر من ميلين

فقال الرئيس لا أعلم مقدار البعد بيننا واما أعلم انه رجل قد خصه الله بما لم يخص احداً من الناس غيره وكأني بجميع هذه الجدران عيون وأرصاد تنقل له الاخبار فيعلم ماجريات أقاصي لبنان وهو جالس في قصره

ولم يتم الرئيس كلامه حتى سمع طارقاً يطرق الباب فوق العرعب في قلبه وقلوب رهبانه حتى لم يستطع أحد منهم النهوض لفتح الباب فاخذوا يهمسون

فما بينهم ليخلفوا وسيلة يرثون بها أنفسهم وفي اثناء ذلك نهض أحدهم وفتح الباب واذا برجل اسود اللون طويل القامة غريب الزي وبجانبه امرأة مبرقة عليها ثياب سوداء حالكة وعلى يدي العبد طفل وكلهم ينتفضون من شدة البرد فسألها الراهب عن غرضهما فقال الرجل هل هذا المكان دير . قال نعم . قال وهل تقبلوننا عندكم ضيوفاً هذه الليلة . قال نعم . وادخلهما الى الغرفة وأجلسهما على مقعد بالقرب من الرئيس فتأملهما الرئيس فاذا بهما غريبا الشكل والملامح والبلاد فسكن جاش الراهبان وظهر لهما من يحمل حائلهما انهما آتيان من مكان بعيد وقد قاسيا عذاباً شديداً من التعب والبرد

فبدأ الرئيس بالكلام قائلاً بالحقيقة انكما قد شرفتنا هذه الليلة وقد حلت البركة بحولكما عندنا فمرحباً بكما من أين أتيتما ؟ فأجابه الرجل متأوها قد أتينا يا حضرة الأب المحترم من بلاد بعيدة . فقال الرئيس إذاً لا بد انكما تحتاجان الى طعام . ثم أمر بعض الراهبان فجاءهما بطعام من اللبن والجبن و (الفاورمة) والعلس وبأرغفة رقاق (خبز النور) فأكلا وشربا قليلا من الحمر الجيدة المعتقة التي يعز وجودها في غير الاديرة . فأماطت المرأة البرقع في اثناء الأكل عن وجهه كأنه البدر ومع ما فيه من دلائل التعب والشقاء والحزن والكآبة كانت تتجلى فيه ملامح المهابة والجلال فتعجب الجميع من مراقبة هذا الملك لذلك العبد الاسود

وأمر الرئيس بكثرة الوقود وجلسا يستدفئان ويستريحان والرئيس يتأمل هياتهما وملابسهما وحدثهما فلاح له انهما ليسا من لبنان ففتح الحديث ثانية قائلاً . اسمع لي أن أسألكما عن سبب مجيئكما الى هذه القرية في هذا الليل وان كان ذلك تطفلا منا وقد ظهر لي انكما من بلاد بعيدة فهل حضرتما من دمشق

فاجاب الرجل لا ولكننا من احدى قرى تلك المدينة وفي صباح الغد إن شاء الله نشرح لكما حالنا كما هي

قال الرئيس حسناً ويظهر انكما في حاجة الى الرقاد وقد أعدنا لكما فرشاً ثم أمر احد الراهبان فاخذهما الى غرفة فيها مصباح زيتي وفي أرض

الغرفة فرشان حقيرات لكنهما نظيفان مرتبان - واللبنانيون أهل نظافة وترتيب على اختلاف طبقاتهم حتى أقفر الفقراء منهم فانك اذا نزلت عنده لا تستنكف من مؤاكلته أو مجالسته أو الرقاد في فراشه . فغسل ارجلهماء جاء ساخن احضره لهما ثم سألهما الرئيس اذا كان في نفسيهما حاجة الى شيء بعد . فقالا لا

فغادروها وأغلقوا باب الغرفة وراءهم وهم يتساءلون فيما بينهم عن أمر هذا الرجل وهذه المرأة وطفلها ثم عادوا الى غرفة التدفئة فقال الرئيس نحمد الله على نجاتنا من غضب الامير بشير فقد كنت خائفاً أن يكون الطارق أحد جواسيسه . فقال راهب وما أدراك ان هذا الرجل ليس من الجواسيس فاعترضه سائر الرهبان معاً قائلين ذلك لا يمكن ان يكون ألم تفهم من مجمل حالهما انهما غريبان وفي صباح الغد نعلم الحقيقة . وبعد ساعة أو بعض الساعة سار كل الى غرفته للرقاد

الفصل الثالث

سر عميق

وفي الصباح خرج الرهبان باكرًا كجاري العادة لجرف الثلوج التي تراكت على ابواب الغرف وسطوحها تلك الليلة فلما كان الضحى استيقظ الضيوف وبعد تناول القهوة والطعام طلب العبد الانفراد برئيس الدير في غرفة فأنفردا

فقال العبد أعندكم للسرمكان ؟ قال الرئيس تكلم ولا تخف فانتا نحن جماعة الاكليروس قد عهد الينا في حفظ اسرار الشعوب وعندنا سر الاعتراف فقال العبد اني عالم بذلك وهذا هو داعي وثوقنا بك . فاعلم يا حضرة الاب انتا لسنا من دمشق ولا من قراها وانما نحن من بلاد مصر وقد جئنا هذه البلاد فراراً من القتل

قال الرئيس وكيف ذلك ؟

قال العبد ان السيدة جميلة التي رأيتها معي هي زوجة امير من الامراء المالك الذين كانوا حكاماً في مصر من قبل ولاية الوالي الحالي المدعو محمد علي باشا القوالي

فابتدره الرئيس قائلاً وقد سمعنا ان محمد علي باشا المشار اليه قد ذبح الامراء المالك السنة الماضية في قلعة القاهرة بحيلة دعوتهم الى الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمقاتلة الوهابيين بجزيرة العرب

فقال العبد نعم يا سيدي وكان زوج هذه الاميرة في جملة المدعوين الى ذلك الاحتفال وقد ذبح في جملة من ذبح فاننا لم نسمع ان احداً منهم استطاع النجاة من تلك المذبحة . فبعد أن قتل محمد علي باشا هؤلاء الامراء أباح لرجاله قتل كل من يلاقونه من اتباعهم في كل جهات القطر فخرجت العساكر المصرية والارناؤوط والمغاربة وغيرهم على دور الامراء وأمعنوا فيهم قتلاً ونهباً وفتكاً بغير شفقة ولا حساب

وقد كنت في بيت ذلك الامير خصياً من خصيان قصره وكنت أحبه حباً عظيماً وكانت هذه الاميرة حبلى ولها غلام سنه سبع سنوات وكان اسمه سليماً فطلبت الي الفرار بها وبابنها من وجه الموت والعار وكنت عالماً ان الصداقة وصدق الخدمة انما تظهرا في مثل هذه الحال . فحملنا ما استطعنا حملاً من خفيف الحمل وغالي الثمن وخرجنا من المدينة في ظلام الليل على خيل الى خارجها وجددنا المسير مع صعوبة الركوب على تلك السيدة المنكودة الحظ حتى بعدنا عن المدينة فوصلنا الى مكان اختبأنا فيه الى الصباح ثم سرنا في الصباح التالي وما زلنا نجد السير ما استطعنا حتى دخلنا حدود سوريا ولا تسل عما قاسته هذه المسكينه من العذاب والمشقة وما ذرفته من الدموع السخينة

فزلنا في بلدة غزة في بيت والناس هناك يسألون عنا فقلنا اننا من بلاد الترك نفيًا للشبهة . وبعد بضعة أشهر آن وقت الولادة فوضعت هذا الغلام فدعوانه غريباً لأنه ولد في غربة

فلما تمت الولادة كما ذكرت أعملنا الفكرة في وسيلة ننسى بها تلك المصائب ونعيش في مكان يعزي هذه الحزينة على فقد زوجها فعلنا بالاستقصاء ان جبل

لبنان من افضل ما خلق الله من الاماكن الجيدة الهواء فتاقت أنفسنا الى الاقامة فيه ولا سيما بعد أن سمعنا عن تيقظ اميره وتمهده راحة الرعية وسيادة الامن فيهم وقد كنت فضلا عن ذلك أرى في سيدتي الاميرة ميلا خصوصاً الى السكنى فيه لغير داع أعلمه

فخرجنا من غزة فمررنا بيافا فاسترحنا فيها مدة ثم شددنا الرحال الى عكا وهناك أصبنا بمصيبة لا تقل عن المصيبة الاولى بشيء.

فاصاح الرئيس بسمعه متلهفاً لما يقوله العبد وقد تأثر من حديثه تأثراً أسقط عبراته لأنه كان من ذوى الشفقة والشفقة تكون على معظمها غالباً في من يعيشون عيشة الفطرة بعيدين عن المدن

فأتم العبد كلامه قائلاً . تأمل أيها الاب المحترم في حظ هذه المسكينة فاتها بعد وصولنا الى عكا بيضعة اسابيع فقدت ابنها الاكبر بكيفية غريبة قال الرئيس وكيف ذلك

فقال العبد آخذنا في عكا مسكناً منفرداً في بعض المنازل على شاطئ البحر ترويحاً للنفس وتجنباً لانكشاف امرنا فمكثنا في تلك المدينة بضعة اسابيع نسأل عن اسهل السبل المؤدية الى لبنان وعن أفضل جهة من جهاته وكانت سيدتي الاميرة نظراً الى شدة تعلقها بابنها سليم لانه مثال والده لا ترد طلبه في شيء . فانفق في بعض الايام انه رأى غلمان الحى ينزلون البحر بقارب صغير للتمتزه فطلب الذهاب معهم فابت والدته خوفاً عليه من اللجج فألح عليها فاذنت له على أن أكون أنا برفقته . فجرى بنا القارب في البحر يسيراً فسر سليم بذلك كثيراً . ثم عدنا الى البر سالمين وقد لاحظت في أثناء جري القارب ان عيني الغلام لم تفارق النوتي لحظة بل كان يراقب حركاته وسكناته وكيفية استخدام المجاذيف كأنه احب مهنة الملاحة

فلما وصلنا الى الشاطئ وجدنا هذه الوالدة في انتظارنا فقبلت الغلام وعدنا الى البيت . ولكن لسوء الحظ كان ذلك النوتي يرسو بقاربه بالقرب من منزلنا فيشده مساء الى صخر هناك ويذهب الى بيته فاذا عرض له ركاب يأتي الى القارب فيحله ويذهب به ومتى انتهى منه يعود فيشده في مكانه . فبعد

ذلك بيضعة أيام خرج الغلام يلعب خارج البيت كجاري العادة ونحن في البيت ندبر بعض المهام لغريب فانشغلنا ساعتين ثم انتهت والدته بغتة ونادت « أين سليم » فقلت لها قد تركته يلعب أمام البيت ثم خرجنا نفتش عنه فلم نقف له على أثر فصاحت « ويلاه قد فقد الولد » فأخذت أناديه وأستطلع أمره عبثاً ثم نظرت الى البحر فلم أر القارب وقد كان منذ أيام لا ينفك مشدداً بالشاطئ. فقلت في نفسي اظنه ركب فيه يجرب نفسه في مهنة الملاحة فقذفته الامواج الى حيث لا نعلم

اما هذه الوالدة فأخذت تصيح وتندب نفسها وولدها وتقطع شعرها حتى أغمي عليها وأنا في حيرة فأخذت في تسكين روعها ثم سرت افتش عن الغلام في جوار المنزل وبعثت منادياً ينشده في الاسواق فلم اقف له على خبر. وبعد التفتيش عنه اربعة ايام يئسنا من لقائه فكرهنا البقاء في تلك المدينة والمصيبة الكبرى اننا لم نكن نستطيع الظهور أمام الحكومة لطلب اليها التفتيش عن الغلام باكثر دقة خوفاً من كشف امرنا وعود ذلك وبالا علينا

فغادرنا عكا ونحن في حالة يرئى لها من الحزن والكدر وهذه المسكينة لا تنفك عن البكاء ليلاً ولا نهاراً حتى أسقمت ولدها الآخر من إرضاعه ألبان الموم والاحزان - قال ذلك وتساقطت العبرات من عينيه فبكى معه الرئيس. ثم قال العبد فبالاختصار أيها الاب المحترم اننا وصلنا صيداء وهناك علمنا ان هذه الجهة من أفضل جهات لبنان فأخذنا في السير من قرية الى أخرى وقد صممنا على الاقامة في مكان منفرد فهدانا بعض العارفين الى هذا الدير فسرنا صباح أمس على امل الوصول اليكم عند الظهيرة ورافقنا رجل من بعض القرى معظم الطريق وكلما سألناه عن المكان المقصود يقول « ها قد وصلنا فانه لا يبعد اكثر من مرمى حجر او طول رسن البغل او مقدار شرب غليون » او غير ذلك ونحن قد أنهكنا التعب وتبلت ثيابنا من الامطار وقاسينا من البرد أشد العناء ولم يمكننا الركوب لوعورة الطريق فغربت الشمس ونحن في مكان قيل لنا انه قرية بيت الدين مسكن امير هذه البلاد

فلما وصلنا الى هناك اشار الرجل الى مكان هذا الدير وقال اغدوني ياد

لا يمكننى الوصول معكما الى هناك وودعنا ورجع . كل ذلك والبرد شديد
والثلوج مترامكة وقد لامنا كثيرون على قدومنا الى هذه الاماكن في فصل
الشتاء ولكن المقدر كائن لا ينعحى

فبعد ان فارقنا ذلك الرجل لقينا رجلا متسربل بعباءة سوداء يظهر عليه
انه ليس من عامة الناس فسألنا بكل لطف عن جهة مسيرنا فاجبتنا ان علينا
نذراً للدير الفلاني وقد اتينا الآن لوفائه فقال أتريدان ان ارافقكما الى ذلك
الدير لاني أراكما غربي الديار . قلنا ولكم الفضل . فلما وصلنا باب الدير وقف
بنا الرجل هنيهة ثم قال هذا هو المكان فاقرعوه يفتح لكم ثم ودعنا وسار
فشكرنا فضله وقرعنا باب الدير ودخلنا على ما رأيتمونا

فقلق الرئيس لثلا يكون ذلك الرفيق جاسوساً من جواسيس الامير
بشير ويكون قد سمع شيئاً مما قالوه ولكن تأثره من حكاية سعيد شغله عن
التفكير بغيرها

فالتفت الرئيس الى سعيد قائلاً طوب نفساً يا ولدى وقر عيناً قد حفظت كل
مقالك في صدرى سرراً ونطلب الى الله سبحانه وتعالى ان يعزى هذه المسكينة
ويهبها الصبر الجليل على احزانها فاذا شئنا الاقامة عندنا فرحباً بكما فانكما
ستحلان على الرحب والسعة وإلا فاني مستعد لقضاء كل ما تحتاجان اليه ولا
فرق عندي بين ان تكونا مسيحيين او غير مسيحيين فاننا جميعاً نعبد الاله
الواحد القهار . وفضلاً عن ذلك فان الديانة الاسلامية هي ديانة مولانا السلطان
صاحب البلاد

الفصل الرابع

الامير بشير

وبعد ان أتم سعيد حديثه سأله الرئيس عن جميلة فقال له انها ذهبت بعد
الطعام الى غرفتها ولا زال هناك والباب مغلق عليها فقال لسعيد هلم بنا لنعزيها

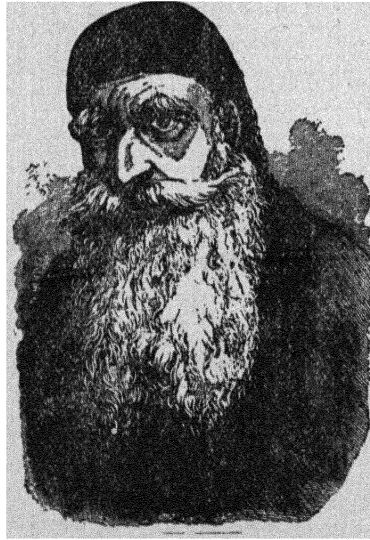
فسارا حتى أتيا الغرفة فسمعا صوت نذب وبكاء فوقفا خارج الباب صامتين واذا هي تقول : « يا للمصيبة أين أنا الآن وأين زوجي وحبيبي وأين حشمه وخدمه وأين انت يا ولدى سليم ؟ أواه قد صرت طعاما للأسماك وتركت والدتك المسكينة تتقلب على جمر الغضا . أما كان الاولى بي ان اموت فداء عنكما وأستريح من شقاء هذا العالم . . . ؟ أما من وسيلة يا إلهي للنجاة من هذه المصائب هل اطلع الامير على حقيقة امري فأخاف انه اذا علم به يزيد غضبه علي وينتقم مني او لعله يشفق طي ضعفي ويقبل توبتي » ثم اخذت تخاطب نفسها قائلة « مالك يا مسكينة ولهذا الكلام ألتي حملك على هذا العبد الامين وانكلى على الله وهو يقودك الى ما فيه خيرك »

ثم طرق سعيد الباب طرقا خفيفا لئلا يزعجها فسكتت فقال سعيد لا تخافي يا سيدتي فأنا عبدك سعيد ثم فتح الباب ودخل فرآها في حالة يرثى لها وقد بللت ثيابها بالدموع وحلت شعرها ومزقت ثوبها وخنقتها العبرات حتى كاد يغشى عليها فتقدم اليها وأخذ بيدها وأجلسها ثم استأذن للرئيس في الدخول فأذنت فدخل وقد تعجب من فرط جمالها وزاد ذلك حزنه عليها حتى لم يعد يمكنه إمساك دموعه لكنه تجلد وتقدم قائلا « تجلدي يا سيدتي ويا ابنتي فان الاحزان تجلب الاسقام فاتكلمي على الله تعالى واشفقي على نفسك وعلى هذا الطفل فانه تعزية كبيرة لك . واتركي الامر لله فهذا سعيد خادمك الامين قد اطاعني على حقيقة حالك وعاهدته على ان يكون ذلك سرا بيني وبينه . واعلمي يا ابنتي اني مشارك لكما في جميع احزانكما وسأبذل جهدي في تعزيتك ومرضاتك فاتخذيني لك أبا او صديقا تلقين عليه أتعابك » وما زال الرئيس في مثل ذلك حتى سكن روعها ومسحت دموعها اما هو فكان في أثناء ذلك يتأمل بجمالها وما يغشاه من الاحزان وما يتجلى في وجهها من الهية والكمال . فقد كانت قمحية اللون مستديرة الوجه سوداء العينين واسعتهما قليلا مع حدة وذبول رشيقة الحركة مع تعقل ووقار

ثم استأنف الحديث قائلا ها نحن قد علمنا حقيقة الحال وليس من الرهبان احد هنا لأنهم خرجوا جميعا للعمل في الحقول فاذا جاءوا لا يعلمون شيئا من

قصتنا واذا سئلت عن محيئكما فاذا اقول ؟ . فقال سعيد قل اننا جئنا من صيدا لوفاء نذر علينا

وم في ذلك سمعوا صوت نداء في الدار فخرج الرئيس واذا بأحد رجال الامير بشير قد جاء يدعو رئيس الدير لمواجهة الامير في قصره بيت الدين فوق الرعب في قلب الرئيس ولكنه تجدد لعلمه ببراءته فلبس جبته وقلنسوته حتى أتى القصر (السراى) فلما وصل قاعة المجلس وقعت المهابة في قلبه لأنها على كثرة من فيها من الارباب لا يسمع فيها صوت وجميعهم جلوس وكائن على رؤوسهم الطير . وقد كانت عادة الامير في مجلسه فلم يستطع أحد ان يتفوه امامه من تلقاء نفسه لعظم هيئته . اما الرئيس فكان أجراً من غيره والظاهر ان الامير بعد اعتناقه الديانة المسيحية فصح في الاكرام لجماعة الاكليروس



الامير بشير

وكان الامير جالساً جثواً على مقعد في صدر القاعة مسنداً يده الى وسادة فوقها طبنجة محشوة لا تفارق مجلسه . وليس على ذلك المقعد غيره لانه لم يكن يأذن لاحد ان يجلس بجانبه . وكان عليه قباء بسيط الزى شبيه بالقفطان صنع دمشق فوقه منطقة من الصوف صنع كشمير . وقد تقلد في منطقته الدواة

والخنجر المرصعين وفوق القفطان جبة من الفرو الثمين وعلى رأسه اذ ذاك العمامة الكبيرة . اما الطربوش فلم يلبسه الا في آخر أيام حكمه اذ اصبح الطربوش من ذلك الحين شعار الدولة العثمانية يلبسه كل من يتولى مصلحتها . وكان الامير ربعة في الرجال واسع الصدر عريض الكتفين اما هيئته فكانت اقرب الى هيئة الاسود منها الى الادييين لانه كان عريض الجبهة عاليها غليظ الاسرة له حاجبان يتدلى الشعر منهما على عينيي براقتين كأنهما تتقدان ناراً وبينهما انف كبير به انحناء قليل تحته شاربان طويلان تحتها لحية متجعدة مسترسلة على صدره وقد وخط الشيب شعره قليلا

وكانت ارض القاعة مفروشة بالطنافس والسجاد الثمين فدخل الرئيس بعد أن نزع حذاءه خارج الباب كجارى العادة فرأى الامير جالساً وبين يديه ارباب مجلسه فحياء قائلاً « عم صباحاً يا سيدي الامير » فرد التحية وأذن له في الجلوس ثم امر له بالقهوة والغليون . اما الرئيس فلم يسره هذا الاكرام لقلقه من هذه الدعوة على أثر تحذره أمس . ثم نظر الامير الى الرئيس بتيئك العينين الحادثتين بما فيهما من ملامح الشجاعة والذكاء متبسماً تبسماً يزيد هبة ووقاراً وقال بصوته الجهوري

يا أبانا ان غرباء نزلوا عليك امس فمن هم ؟

قال الرئيس انهم يا سعادة الامير قادمون من صيدا لوفاء نذر للدير فقال الامير أخلك جاهلا الحقيقة او متجاهلا . . . أتقصـد ان تعشـ الامير بشيراً

فنهض الرئيس على قدميه قائلاً العفو يا سعادة الامير فان سعادتك تعلم اننا عبيد مطيعون مخلصون ولم يسبق لنا شيء مثل هذا وليس هؤلاء أول من جاء لمثل ذلك فان هذا الدير مشهور بالكرامة وتأتيه النذور من سائر أنحاء العالم

فأتعده الامير وسأله من أي طائفة هم فقال الرئيس لا بأس يا سيدي مهما كانت طائفتهم فان الدير يقبل النذور من جميع الطوائف والملة بدون استثناء فضحك الامير وقال جثني بهم . فقال سمعاً وطاعة وخرج وهو في حيرة

خوفاً على جميلة من غضب الامر . فلما وصل الدير وجد جميلة وسعيداً قد عيل صبرهما من الانتظار فأخبرهما بما كان وشجعهما وقال لجميلة انهضي يا ابنتي والبسي احسن ما عندك وهلمي مع سعيد وأنا اسير بكما اليه لعل لكما في ذلك خيراً . فقالت جميلة وكيف نفعل بغريب قال الرئيس نتركه هنا ونوصي به احد الرهبان . قالت لا لا . لا أفارقه قبل ان تفارق روحي جسدي فانه وحيدى ومنتهى أمني وقد كفاني من فقدت . فقال الرئيس اداً نأخذه معنا فلبست جميلة ثوباً ليس فيه مثمّنات ولكنه بسيط نظيف ومشطت شعرها وضفرتة وأرخته على ظهرها ولبست البرقع على رأسها وكانت قد استراحت من تعب الطريق فاشرق وجهها وارعد اليه لونه الوردي على ما به من الكمال والوقار

الفصل الخامس

سراي بيت الدين

فسار الجميع حتى أتوا السراي فدخلوا من باب السور الى صحن السراي الخارجي فادا هو أشبه بميدان متسع محاط بالاشجار في صدره باب الصحن الداخلي يتصل اليه ببضع درجات ترى فوق عتبه بيتين من الشعر تاريخاً لبناء تلك السراي . فدخلوا ذلك الباب والخفراء وقوف هناك يتأملون بتلك السيدة وذلك العبد ويتساءلون عن امرهما . فوصلوا الصحن الداخلي فاذا به مرصوف بالرخام في وسطه بركة رخامية وحوله غرف بعضها يستطرق الى مماش تشرف على ما وراء بيت الدين من البساتين والادوية والجمال . وفي صدر ذلك الصحن قاعة الامير ، ويصعد اليه بعدة درجات والى كل من جانبيه خفير منتصب بيندقيته يمنع الدخول بغير استئذان

فلما وصل الرئيس عرفه الخفراء فلم يمنعوه من الدخول فدخل هو اولا

وأخبر الأمير بشيراً بمجيء السيدة والعبد ثم طلب إليه إذا شاء أن يصرف من في مجلسه قبل أن تدخل تلك المرأة لئلا تستحيي فصرف الجميع . ودخلت جميلة فرأت الأمير جالساً على مقعده وقد أشعل غليونيه وهو على ما تقدم من الهيبة والوقار وعلى عيائه هيئة الاسود . فلما وقع نظرها عليه اضطرب قلبها وارتعدت فرائصها

فهون عليها ودعاها الى صدر القاعة ورحب بها تخفيفاً لرعبها ثم استأذن سعيد ودخل وجلس متأدباً قرب الباب

فنظر الأمير الى تلك الحورية وعلى يدها ذلك الطفل وتأمل في ذلك العبد الطويل رفيقها فاستغرب أمرهما فقال لسعيد « ماذا تكون أنت من هذه المرأة » فوقف سعيد احتراماً وقال « عبدك يا سيدي خادم لحضرتها فعظمت المرأة في عين الأمير والتفت اليها قائلاً أين هو زوجك يا سيدة فاطرقت جميلة برأسها الى الأرض ولم تستطع إذ خنقتها العبرات وأخذت تتساقط على خديها كاللؤلؤ المشور فأثر ذلك في قلب الأمير بشير تأثيراً عظيماً وأدرك الجواب . فسأل سعيداً قائلاً من أين أنتم . فقال سعيد أتينا من مدينة صيدا لنهي نذراً علينا لهذا الدير

فقال الأمير من أوصلكم الى باب الدير مساء أمس فقال أوصلنا رجل لا نعرفه إذ لم نر وجهه ويظهر لي أنه فوق العامة فقال هل تعرفونه اذا عاينتموه ثانية

فقال سعيد نعم يا سيدي

فتبسم الأمير . فأدرك سعيد أن ذلك الرجل انما هو الأمير بشير نفسه وقد ذهب متنكراً يطوف في القرية سهرراً على حالة الامن في البلاد . على انه قلما كان يتيسر له التنقل والجولان منفرداً لكثرة ما كان له من الاعداء المترصدين في كل مكان

ثم استأنف الأمير الحديث فقال تقولان انكما من مدينة صيدا ويظهر من حديثكما انكما من بلاد مصر . فأجاب سعيد ان سيدي المرحوم سكن مع عائلته في بلاد مصر مدة من الزمن فاكتسبنا اللهجة المصرية في حديثنا

فقال الامير هل أنتم عازمان على العود الى بلادكم قريباً . فقال سعيد هذه مسألة فيها نظر لأنني أرى سيدتي تكره الإقامة في بلد فقدت فيه رفيق حياتها وليس لها فيه مصلحة ولم تفقد سيدنا فقط بل فقدنا معه كل متاعنا وأصبحنا كما ترانا وربما فضلنا المقام تحت رعاية سعادة الامير بقية حياتنا . قال ذلك ولم يقدر أن يتالك عن البكاء وكذلك جميلة والرئيس . أما الامير فكان ثابت الجنان قوي الجأش على ما تقدم فلم يظهر عليه شيء من ذلك وإنما شعر شعوراً غير اعتيادي عند تأمله تلك السيدة فقال اعلمي ياسيدة اني اقبلكما في بلادتي بكل ترحاب بل ادعوك ان تقيمي عندي في داري كأعز من فيها فتعيشي مع حرمي . فاشارت جميلة بلامح وجهها انها تقبل الدعوة بالمنة والشكر ثم استوت على قدميها أمام الامير كأنها من حور الجنان والدموع ملء عينيها وخاطبته بكل رزانة ووقار قائلة : اننا نشكر الاله الحي الازلي الذي هدانا هذا السبيل وقادنا الى أعتابك أيها الامير فقد جبرت قلوبنا وخففت مصائبنا فوجبت علينا طاعتك والانقياد الى امرك

فأشار الامير الى بعض الخدم ان يذهب بالسيدة الى دار الحريم وأوصى بما يلزم لاكرامها . فحمل سعيد ولدها غريباً وخرجت من القاعة ثم ودعت الرئيس وقالت له لا أنسى يا حضرة الأب فضلك علينا فعسى ان يقدرنا الله على مكافأتك فأسألك أن تذكرنا وان تزورنا من وقت لآخر فاجابها الرئيس بمثل قولها وانصرف

الفصل السادس

دار الحريم

وبعد انصرف جميله والرئيس عاد سعيد الى الامير وقبل يديه وأثنى على معروفه وانتظر أمره فسأله عن معارفه فقال انه يعرف التركية تكلمها وكتابة ويعحسن العربية . فأمره ان يكون من خدمه الخصوصيين فشكر فضله وخرج أما جميلة فخرجت من القاعة الى الصحن الداخلي فرأت بجانب باب القاعة

باباً كبيراً مرصعاً بالفيفساء الجميلة يستطرق الى دار صغيرة ودهليز حتى ينتهي الى غرف الحريم . فأوصلها الرجل الى أول الغرف وسلمها الى الخصيان فذهبوا بها الى قاعة الاستقبال المفروشة بالسجاد الثمين وفي جدرانها نقوش بديعة . فسار بعضهم لاجبار امرأة الأمير بذلك خفاءت ومعها بعض أهل السراي من السيدات لاستقبالها فرحبت بها كثيراً ولما تأملتها تساقطت العبرات على خديها رغم ارادتها . ثم أخذت غريباً وجعلت تتأمل فيه وتقبله لأنه كان بارع الجمال ثم تناولته منها نساء السراي جميعهن وجعلن يقبلنه ويدعين له بطول العمر ويذكرن اسم الله وقاية له من العين

فاستأنست جميلة لكنها لم تضحك لأن قلبها لم يكن يفرح لشيء بعد ان فقدت زوجها وولدها وقاست ما قاسته من المشقة والاكتئاب ولم تكن تتعزى مع ما لاقته من الترحاب وحسن المعاملة من امرأة الامير ومن في بيته من السيدات

وفي مساء ذلك اليوم جاء الامير الى دار الحريم فسأل زوجته عن جميلة فقالت انها آتست منها امرأة فاضلة كاملة ليس فيها عيب . فاجبرها عن كيفية توصله اليها الى ان قال ومما حملني على اكرام هذه السيدة فضلا عن انكسار قلبها وما هي عليه من الكمال اني رأيت فيها مشابة كلية لك في الشكل والملامح والخلق فسبحان الخلاق . ولذلك حالما شاهدها استأنست بها وعاملتها معاملة القريب ووجدت في نفسي ميلا لها ولا كرامها . فقالت امرأته لقد قلت الصواب بامولاي لأنها بالحقيقة تشابه صديقة لى من بنات عائلتنا عرفتها منذ الصغر رحمها الله . ولذلك حالما رأيت جميلة اليوم قبلتها واستأنست بها ولم استطع امساك دموعي عند مشاهدتها لتذكرني تلك الابنة المسكينة التي ذهبت فدى تعصب والدها

ثم دعا الامير جميلة فحضرت وهمت بتقبيل يده فامسكها قائلاً أنظري أيتها السيدة لقد قدر الله لك ان تصلي الينا وقد كن ذلك من بواعث سرورنا لاسيما وان الست (يريد امرأته) قد أحبتك واستأنست بك فلك من الآن فصاعداً كل ما تطلبينه واعلمي اني اقدم لك كل ما تحتاجين اليه عن رضى

ورغبة مني . إذ يظهر انك من قوم كرام ولا حاجة بي الى معرفة نسبك
لأنني علمت انك لا تريدن التصريح به عند ما كلمتك في صباح هذا اليوم وانما
اسألك أن تقترحي علي كل ما تربدينه

وكان وجه جميلة اثناء ذلك يتقلب بين الاصفرار والاحمرار ثم خنقتها
العبرات وتهدت تنهداً خفيفاً . فلما أتم الامير كلامه قالت له وهي مطرقة في
الارض ليس لي عندك اقتراح ولا وصية الا ولدي غريب فانه تعزيتي الوحيدة
في هذا العالم

فقال لها الامير طيبي نفساً وقرري عيناً فاني سأعامله معاملة ولدي . ثم
استأنفت الحديث قائلة وأتقدم الى سيدي اذا حسن في عينيه أن يسمح لي من
وقت الى آخر بمشاهدة ذلك العبد الامين بل الصديق الوفي سعيد فانه كان
سبباً في حفظ حياتي وقاسى من أجلي مشاق عظيمة . فأجابها الى ذلك على أن
يذهب اليها مرة في كل اسبوع . فاثنت على الفاته واكبت على يده لتقبلها فنعها
فمكثت جميلة في بيت الامير بشير كواحدة من أهله مكرمة معززة وكان
سعيد يتردد عليها من وقت الى آخر وهي تستأنس به وتحادثه بما بينهما من
الامور التي لم يطلع عليها الا رئيس الدير . وهذا كان يغتنم كل فرصة لزيارتها
وتعزيتها وكانت تشكره دائماً لأنه كان الواسطة في وصولها الى هذه الحالة

أما غريب فكان ينمو ويشب عقلاً وجسداً حتى بلغ الثامنة من العمر
ولكن الناظر اليه كان يظنه ابن خمس عشرة سنة . وكان يظن نفسه ابن الامير
بشير لأن أمه كتمت عنه كل ما يتعلق بوالده فوكل الامير تعليمه وثقيفه
لنديمه المعلم بطرس كرامه من اهالي حمص وكان ذا شهرة باللغة والشعر وكان
يعلم الامبر اميناً ابن الامير بشير أيضاً . فرأى المعلم بطرس في غريب ذكاء غريباً
وقريحة وقادة فأحبه وزاد رغبة في تعليمه . وبالحقيقة ان هذا الغلام كان
لفرط ذكائه ولطف خلقه لا يراه أحد الا ويعلق بمحبته . فانه كان طويل القامة
على صغر سنه حاد العينين كبيرها عريض الجبهة رشيق الحركة ساكن الجأش
مع سن الصبوة حاد الذهن سريع الانتباه

ولا حاجة بنا الى ذكر مقدار فرح والدته به ولكنها لم تكن تظهر له

استحساناً بل كانت تظهر انها تنتظر منه أكثر من ذلك
أما الامير بشير فكان يحب غريباً محبة شديدة ويعامله معاملة أولاده وبما
ان مركزه كان يقضي عليه بالتغيب عن بيت الدين كثيراً فكان كلما عاد من
سفر يسأل عن غريب وعن راحته ويقبله
وكان غريب يحب الأمير محبة عظيمة ممزوجة بالاحترام. أما سعيد فكان معجباً
بالامير بشير لأنه لم يشاهد عمره رجلاً مثله مع انه اختلط اختلاطاً عظيماً بالماليك
والارناؤط والمغاربة والانكشارية أما مثل هية هذا الرجل فلم يرقط . وكان
إذا خاطبه في أمر كأنه يخاطب رجلاً أعلى رتبة من البشر فلا يستطيع التكلم
الا مطرقاً لا سيما إذا دخل مجلسه فيراه على كثرة من فيه من الامراء والمشايخ
قد استولى السكوت عليه لا يسمع فيه الا صوته الجهوري آمراً أو ناهياً

الفصل السابع

فراق مر

ولما عزم الامير بشير على السفر الى مصر سنة ١٨٢١ بسبب تهديد والي
البلاد إياه بالقتل كان في بلدة خارج بيت الدين فدعا ولديه خليلاً وأميناً ليرافقاه
وكان امين شديد التعلق بغريب لأنه كان رفيقه في التعليم فتقدم الى المعلم بطرس
ان يستعطف الامير لعله يأذن لغريب في مرافقته الى مصر . وكان الامير ممن
يصغون الى كلام رجال العلم وزد على ذلك انه كان يحب المعلم بطرس بنوع خاص
ويثق به لأنه نديمه فقبل الامير تلك الوصية . كل ذلك وجميلة لم تعلم بشيء
فلما بلغها ورود الامر بسفره وقع الرعب في قلبها لأنها عتقت الارض التي فقدت
فيها زوجها وخرجت منها خروج اللصوص . فدعت سعيداً اليها وخاطبته على
انفراد قائلة . انظر يا سعيد ها ان الامير قد بعث الى حبيبي غريب ان يرافقه
الى مصر وانت تعلم تعلقي به وكيف غادرت الدنيا من أجله ولا يخفى عليك
انه صغير السن لم يتجاوز العاشرة من العمر وهو ذاهب الى بلاد قتل فيها

أبوه وأقام فيها قاتله وسيمر على ارض فقد فيها أخوه (قالت ذلك وتنهت)
فلا أدري ماذا أعمل

فأجابها سعيد قائلاً لا بد لك يا سيدتي من الصبر فان سيدي غريباً مسافر
مع عصبة قوية من الرجال فلا خوف عليهم . وأما قولك انه ذاهب الى حيث
قتل أبوه فهو غير عالم بذلك ولا يعرفه أحد بهذه الصفة في الدنيا كلها الا
رئيس ذلك الدير . وفوق ذلك ان بقاءه هنا الآن أكثر خطراً عليه لان الامير
سائر الى مصر لاضطراب الاحوال هنا

فقلت جميلة بلهفة ما هذا الاضطراب اخبرني

فقال سعيد لا تخافي ياسيدي فانها اختلافات سياسية الآن لاتمس الاشخاص
فقلت ألا تريد ان تخبرني ما هي

قال نعم . لا يخفى عن جنابك ان اماره سيدي الامير بشير في لبنان تحت
ولاية عبد الله باشا والى عكا المولى من قبل الدولة العلية . وقد اتحد الاثنان
في السراء والضراء في هذه الاثناء غضبت الدولة على عبد الله باشا المذكور لما
تقدم ضده من الشكاوى فأمرته ان يسلم زمام الاحكام فعصى فامرت درويش
باشا احد وزرائها في دمشق ان يخرج الحكومة من يده قهراً فابتدأ بسيدي
الامير بشير فاخرج اماره لبنان من يده الى امير يقال له الامير عباس فذهب
سيدي الى عكا لخبايرة عبد الله باشا بالامر فبعث درويش باشا جنداً يقطع عليه
الطريق فعزم على المسير الى مصر ليطلب وساطة محمد علي باشا عزيز مصر في
عفو الباب العالي عن عبد الله باشا

فنهضت جميلة مرتعدة قائلة ويلاه يا سعيد كيف نبتى نحن هنا والبلاد في
قبضة اعدائنا وليس من يحمي ذمارنا . باللفضيحة . . .

فاجلسها سعيد قائلاً أجارنا الله من الفضيحة يا مولاتي اننا لا نزال بحمي
الامير في أمن من طوارق الزمان فان العرين لا تقربه الثعالب ولو غاب الاسد
عنه وزيادة على ذلك ان حرم الامير لا يزلن هنا وهو احرص على عرضه منه على
حياته . وقد علمت ان الامير عباساً قد عاهد سيدي سرّاً أن يحمي ذماره في
بيت الامير بغيا به كحضوره

ولا تظني ان هذه الحال تدوم فقد علمت ان اماره لبنان خرجت من يد الامير منذ تولاهها الى الآن عدة مرات ثم عادت اليه والناس مجمعون على انه ما من احد يليق بها الا هو فقد طالما خرجت من يده على يد احمد باشا الجزار الذي كان يبيع اماره لبنان بيعاً فيسلم زمامها الى من يدفع الرشوة الكبرى حتى انه بعث الامير بشيراً منفيّاً غير مرة وحاربه مراراً ومع كل ذلك لم تثبت اماره لبنان الا له . وحضرتك تعلمين اهليته وعمة الرعية له فعلى كل حال لاخوف علينا باذن الله والذي نجابا من مصر قادر ان يحفظ حياتنا هنا واذا كانت ذنوبنا كثيرة فاطنّها غفرت بما حل بنا من النكبات

فقلت جميلة هل أنت واثق بذلك ياسعيد . قال نعم وعلى كل حال أرى سفر سيدي غريب افضل من بقاءه هنا وفوق ذلك ليس لنا حيلة بما حصل اذ لا يمكننا مراجعة الامير في ما طلب وحضرتك تعلمين كرهه للمراجعة بما يقوله ولو كان غلطاً على اننا نعلم يقيناً انه يحب سيدي غريباً كاحد أولاده وفي معتقدي ان الولد اذا قاسى مشاق الغربه في صغره يشب عنكاً عالماً باحوال الدنيا . وياحبذا لو استطيع مرافقته منعاً لبلبالك غير ان دون ذلك عدة موانع منها اننى أخشى انكشاف امرى هناك ولا آمن ان اتركك وحدك اذ ربما تحتاجين الى خدمتي خدمة لا يستطيع غيري ان يقوم بها . أما غريب فقد سار بجمعة أسد الغاب وبطل هذا العصر فلا خوف عليه ولا هو يحزن

فنهدت جميلة وقالت إنا لله وانا اليه راجعون اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون فالنا الا الاتكال على الله والتمسك بالصبر الجميل . وبينما هما في ذلك دخل غريب ووجهه يطفح سرورا وتقدم إلى والدته وقبل يدها كجاري عادته ثم قال لها ان ابي (يريد الامير بشيراً) قد بعث الي أن اسير اليه مع اخي امين ومن هناك نسير جميعاً الى مصر فهيا بنا نذهب . وقبلته وقالت أنا لست ذاهبة معكم ياولداه وانما انتظركم هنا فاغورورقت عيناه بالدموع وسكت هنيهة ثم قال فليذهب سعيد . فقال سعيد حبذا ياسيدي لو استطيع الذهاب فانا باق هنا مع سيدي ننتظر رجوعكم فمضى ان يحلو لكم السفر لان بلاد مصر بهجة ولا سيما في فصل الشتاء

ثم أقبلت والدته تقبله وتودعه قائلة « سر يا ولدي بكلاءة المولى وحراسته واستحلفك بالحببة الوالدية الاتنس والدتك في سفرك » فبكى الغلام وقال كيف انساك يا أماء وقد ربيتني في حجر ك أعواما فقالت احب منك أن تكتب لي كما سنحت لك الفرصة وتخبرني عما تشاهده في سفرك تعزية لقلبي عن بعدك

وفيا م في ذلك قرع الباب واذا بالخدام يطلب الامير غريبا ليسير حسب طلب الامير بشير فنهضت والدته وقبلته فقبل يدها وودعها وسار مع الرسول ومعهم أولاد الامير الآخرون وأعين جميلة وسعيد ترافقهم حتى تواروا

الفصل الثامن

غريب في مصر

وكانت هذه أول مرة خرج فيها غريب من بيت الدين فحول نظره الى ربى لبنان وهو على جواد مطهم لا يمنعه الصغر من الظهور بمظاهر كبار الفرسان وقد جعل على رأسه كوفية من الحرير فوقها العقال البدوي وارتنى قفطانا من الحرير فوقه الجمدان المززر بازرار القصب وكان على صغر سنه يحسن ركوب الخيل شأن أولاد امراء لبنان فانهم يشبون على ظهور الخيل ولا سيما بيت الامير بشير فقد كان يضرب المثل بأسطبله . وكان الركب يلنفتون الى غريب بنوع خاص ويلاطفونه مراعاة لصغر سنه وجماله ودعنه فادا وصلوا الى مكان أو قرية يقول السياس بعضهم لبعض هلم نخبر الامير الصغير بهذا الامر وذاك المنظر وكان يقابل ذلك منهم بالبشاشة والالطف والثناء

وما زال الركب سائرين الى المساء فباتوا في احدى القرى ثم نهضوا في الصباح التالي وما زالوا بين حل وترحال حتى التقوا بالامير بشير فسلموا عليه وقبلوا يديه وسار الركبان معا وجدا السير نحو مصر وكان عددهم ينيف على المئة فارس ومعهم الخدم والحشم والسائقون يتقاطرون من القرى والبلاد يقفون في الطريق لمعاينة الامير بشير الذي طالما حدثوا عنه

أما الأمير ومن معه فما زالوا حتى أتوا الشاطيء فنزّلوا بعدتهم وخيلهم في
مراكب سارت بهم الى العزبة بقرب دمياط فبعث كاشف دمياط يسأل الأمير
عن سبب مجيئه فأجابه أنه جاء يتشرف برحاب العزيز . فبعث اليه الكاشف
أن يبيت تلك الليلة في العزبة وفي الغد يدخل ثغر دمياط فنزل الأمير بمحاشيته
وأولاده في تلك القرية وبعث اليهم الكاشف ما يحتاجون اليه من الزاد والعلف
فاعدت لهم الاطعمة وبعد تناول الغداء والفيولة خرجوا الى الحقول والمزارع
يسرحون الطرف في أرض مصر وغيطانها

أما غريب فاقام في الحيمة وقد أعد ورقا وجرأ فجلس يكتب كتابا الى
والدته لان خيالها لم يبرح في ذلك السفر من مخيلته مع ما اعترضه في طريقه من
لبنان الى مصر من المناظر العديدة المختلفة فاخذ القلم والورق وقص لها مشاهد
في سفره من الاول الى الآخر يتخلل ذلك عواطف الشوق والحنو . ولما اتم
الكتاب خرج من الحيمة فلم ير أحداً غير الخدم والسياس وقد سرحوا الخيل
للمرعى في تلك المزارع فتأمل بما حوله من الارض فاذا هي مستوية السطح
تربها مائلة الى السواد لاشيء فيها من المرتفعات أو الجبال فتذكر ربى لبنان
وأوديته وبنائيه فانتقلت به هواجسه الى سراي بيت الدين وما تشرف عليه
من الجبال والادوية والغابات والبساتين ثم ذكر والدته وما أوصته به خفق
قلبه شوقا واشتد به ذلك حتى لم يتمالك عن البكاء وكانت الشمس قد مالت
إلى الغروب فجعل ينظر اليها من وراء الافق بما لبسته من اللؤلؤ القرمزية
والذهبية والفضية مما يأخذ بالقول غير أن ذلك لم يكن ليشغله عن تذكر والدته
والحالة التي شاهدها بها المرة الاخيرة بل كانت تزيد هيجان عواطفه فندم على
مجيئه وود أن يكون طائراً ليمود الى بيت الدين ليشاهدها ويقبل يدها

وفيا هو في تلك المواجس عاد الأمير وأولاده وم يتحدثون بما شاهدوه
من خصب تلك الارض وطيب زرعها فلما وصل الأمير الى فسطاطه رأى
غريباً فقال له أين كنت يا ولدي ولم لم تذهب معنا فاعتذر بأنه كان يكتب كتابا
الى والدته ثم دفع اليه الكتاب وقال له اسألك ياسيدي ان تبعث به الى والدي
فوعده بذلك . وبعد قليل حضر العشاء فتناولوه وذهب كل منهم الى فراشه

عاجلاً طلباً للراحة على أثر ما قاسوه من وعناء السفر
وفي الصباح استقبلهم الكاشف مرحباً وكان قد بعث الى الاسكندرية يخبر
محمد علي باشا بذلك فأجابه أن يسير الامير الى مصر مكرماً وكتب الى مديره
هناك أن يستقبل الامير ومن معه ويقدم لهم الاكرام والمبرة ويقول له ان
العزير يهنيك بالسلامة وانه لم يدخل أحد أعز منك الى مصر . فركب الامير
وبطافته حتى اذا وصلوا بولاق ميناء القاهرة بعث المدير لاستقباله حنا البحري
الحصني فرحب به وأخبره أن العزير في الاسكندرية وسيقدم قريباً ثم سار به
وبأولاده الى جزيرة الروضة مقابل مصر العتيقة وأنزله في قصر الخزندار
أما غريب فلما وصل القاهرة أعجبه كبرها وكثرة الناس فيها لأنها أول
مدينة رآها بهذا الاتساع فاخذ يسأل من حوله عن كل جديد شاهده وكانوا
يصفون له ذلك وصفاً دقيقاً فلما جاء واجزيرة الروضة استغرب غريب امر تلك
الجزيرة القائمة في وسط النيل المبارك الغدوات وما زالوا حتى نزلوا القصر على
الرحب والسعة وفيه كل ما يحتاجون اليه وقد اعد الخدم سائر الحاجيات . وفي
تلك الليلة كتب غريب الى والدته ما حدث له بعد الكتاب الأول

الفصل التاسع

مصر القاهرة

وفي الصباح التالي ذهب الامير لمقابلة ابراهيم باشا في قصره بضواحي
القاهرة ورافقه ابنه . أما غريب فلوصى به الامير أحد رجال القصر المدعو
احمد وكان فيما مضى من جنود محمد علي ثم تولى خدمة ذلك القصر وكان يخرج
بغريب للترهة أثناء غياب الأمير بشير فسر غريب بذلك لأنه لصغر سنه لم تكن
تلذه له المقابلات الرسمية

فخرج به وبعض حاشيته من رجال الامير ودار بهم الجزيرة فمروا بالمقياس
فشرح لهم احمد كيفية قياس النيل به ثم ركبوا قارباً عبروا به النيل الى بر
القاهرة فاعجب غريباً عظم ذلك النهر وكان على صغر سنه مدركاً فطناً محباً لمعرفة

حقائق الاشياء فكان ينظر وهو في القارب الى كل من ضفقى النيل متأملا بما هناك من مزارع الحبوب وغياض النخيل حتى وصلوا بر القاهرة فترلوا عند مصر العتيقة فجعل غريب يتأمل بمبانيها ويسأل عن كل شيء فيها وكان احمد ينظر الى ذلك الغلام ونباهته وذكائه ولطفه نظرة العجب فمروا في اسواق مصر العتيقة الضيقة والناس يشيرون الى ذلك الغلام الغريب الذي بما عليه من الملابس اللبنانية التي لم يكونوا تعودوا مشاهدتها ولا سيما ذلك الجمدان المقصب وكميه المرسلين من كتفيه فاستوقف غريباً بناء كبير يظهر انه قديم العهد في جدرانته تهدم وهو أشبه بالحصون منه بالبيوت فسأل الغلام عنه فقال له احمد ان هذا البناء دير يقال له دير النصارى فيه كثير من المعابد النصرانية والأديرة فداروا حوله من خارج فمروا ببابه فاذا هو صغير يتصل اليه بانحدار ثم وصلوا الى جداره الجنوبي فاذا به برجان هائلان قد غشيهما الخراب بينهما أثر عتبة علوية لباب كبير فقال يا عم ان الاديرة في بلادنا خلاف ما هي هنا فاني لم أشاهد مطلقاً بناء بهذا العظم ولم أر في الاديرة مثل هذه الابراج . فقال احمد صدقت يا سيدي ولا في سائر الاديرة مثل هذه الابراج ولا شيء من ذلك وهذا البناء لم يكن ديراً وإنما هو في الاصل حصن قديم يقال ان الفرس لما تسلطوا على مصر قبل الميلاد بقرون شادوه ودعوه باسم عاصمة بلادهم إذ ذاك فعرف بمحصن بابل وفيه حاصر المصريون عند ما جاءهم الاسلام مفتحين تحت قيادة عمرو بن العاص ثم سكنه الاقباط وغلب عليه اسم الدير فاراد غريب الدخول لمشاهدة ما حواه ذلك البناء فطاولة احمد كأنه يريد أن يريه شيئاً أعظم فسار الجميع حتى مروا بقناطر السباع فشرح له حديثها الى ان قال ان الملك الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك بناها لاستجلاب اماء من النيل الى قلعة القاهرة التي تراها بسفح هذا الجبل . وكان يظهر من معاملة احمد أنه يحب الاختصار بالحديث والعجلة بالمسير نحو القاهرة . وكان غريب مشغولاً عن ملاحظة ذلك بمشاهدة ما حوله من الغيطان الحصبة ثم صعد الى إحدى الآكام الخربة هناك فاشرف على قسم عظيم من القاهرة على يمينه الجبل المقطم وعند سفحه قلعة القاهرة وساروا حتى دخلوا المدينة ومروا باسواقها

وكان غريب يعجب من كثرة الازدحام فيها لكن أهلها كانوا أكثر تمجيباً به مما هو بهم لامتيازهم باللباس والهيئة وبمن معهم من اللبنانيين وكانت القاهرة في ذلك العهد ضيقة الطرق ليس فيها شيء من الشوارع الحديثة المفتوحة أو البنية على النمط الجديد ولم يكن فيها شيء من الأشجار التي تحف بشوارعها الحديثة الآن . فان جهات الاسماعيليه والفجالة وشبرا والتوفيقية وسائر هذه الضواحي كانت كلها حداثى وبساتين وآكام ومستنقعات قلما شوهدت فيها المساكن والبيوت

وقد كان من أعمر الشوارع إذ ذاك وأطولها الشارع الممتد طولاً من باب الحسينية الى باب سعادة يدخل فيه شارع الحسينية والنحاسين والغورية وما وراء ذلك الى الصليية . والشارع الممتد على موازاة ذلك أوله عند باب الشعرية وآخره عند باب السيدة زينب ويدخل فيه باب الشعرية والشعراوي وما بين السورين وشارع منصور باشا ودرب الجماميز الخ . هدا هما أطول شوارع القاهرة وأكثرها عمراناً وما بينهما وما جاورهما من الجهات كالجزاوي والصيارف وبركة الفيل الخ

الفصل العاشر

الدوسة

وما زال الاثنان ومن معهما سائرين حتى وصلوا بركة الازبكية فاذا بها حديقة شائفة تحيط بها ترعة محفوفة بالأشجار فمروا على حصر الى داخل الحديقة ورأوا الناس يتراكمون اليها مزدحمين فالتفت أحمد الى غريب قائلاً أنظر ها نحن الآن في ما يدعونه بركة الازبكية وقد اتفق وصولنا في وقت احتفال يقال له « الدوسة » فلنغتزم الفرصة لمشاهدتها . ولكن يجب قبل كل شيء أن نتحفظ على ما معك من المئونات خوفاً من النشالين الذين يسرقون امتعة الناس من جيوبهم وايديهم ولا يشعر أحد بهم والاحسن ان توصي أتباعك بذلك فاستخف غريب بهذا التحذير ولكنه قبل الصيحة بالشكر

ثم قال احمد أنظر ياسيدي إلى هذا الشيخ ذى العمامة الراكب على هذا الجواد الاصيل الذي تراه يخطو خطوة العروس . فاجاب غريب نعم . قال احمد هذا يقال له شيخ السعدية وعمما قليل تراه يمر بجواده فوق ظهور الناس ثم أوقفه على مرتفع ليتمكن من النظر . وبعد برهة رأى غريب الرجال ينمون بطحا على وجوههم متلازين بحيث لا يكون بين الواحد والآخر خلاء فتألف بذلك جسر من الرجال ثم جاء ذلك الشيخ وامامه رجلان ممسكين بلجام الفرس يقودونه نحو ذلك الجسر . فأحجم الفرس أولا ثم تقدم ماشيا على ظهور الناس والقائدان أمامه مسكان بلجامه فاخذ يخطو على مهل وكلا خطا على رجل نهض ذلك الرجل وراءه تبركا به فدهش غريب لهذا المنظر وقلبه يختلج خوفا على أولئك الرجال من الاذى ولكنه زاد دهشة عندما علم انهم سليمون لم يصب أحد منهم بسوء

وكانت الشمس قد صارت في الهجرة فقال احمد قد حان وقت الظهر ياسيدي ونحن على فرسخ من القصر ومرادنا مشاهدة ما بقي من المدينة فهل تقبلون دعوتي لتناولوا طعام الظهر عندي في منزلي وهو قريب من هنا وبذلك نستطيع اتمام تفرجنا اليوم ونعود في المساء الى القصر

فاجاب غريب الدعوة وسار الجميع حتى أتوا شارعا اتصلوا منه الى حارة قيل لهم انها حارة قيسون . فوصلوا الى باب كبير عنده بواب بعمامة بيضاء فداده احمد فلما حضر همس في أذنه أن يجبر من في البيت من النساء ان رجلا غرباء سيدخلون البيت فليخلوا لهم السبيل فدخل ثم دخل احمد وغريب ورجاله فاتصلوا الى صحن مكشوف في صدره باب صغير دخلوا منه الى دار تتصل بغرفة الاستقبال (المندرة) فوجدوها وجلسوا على التكتئات فقدموا لهم القهوة ثم تناولوا الطعام جلوسا على بساط حول مائدة عليها أنواع المخبوزات وفيها اللوخياء والارز واللحوم المقلية ثم قدمت لهم القهوة ثانية

ثم سأل احمد الامير غريبا هل يتوسد للقيولة قبل فقاده الى دور علوي ودخل به الى غرفة مشرفة على بيت آخر مقابل لذلك البيت فترع غريب بعض ثيابه وتوسد

الفصل الحادى عشر

نساء الممالك

ولم يكد غريب يضيع حتى سمع لفظاً يتخلله صوت امرأة تنوح وتندب فاصاح بسمعه فاذا بذلك اللفظ فى البيت المقابل فأطل من النافذة فأشرف فى دار ذلك البيت على امرأة كالبدر جمالا تستجير من رجل رث الثياب يضربها كأن له سلطانا ان يفعل ذلك فتحركت فى قلب غريب عواطف الشهامة والمروءة فأمر بعضا ممن معه من اللبانيين ان ينزلوا لاقا هذه المرأة من يد ذلك الرجل فنزلوا أسرع من لمح البصر بعد ان سألوا أحمد عن الطريق فأخذهم الى باب البيت بعد أن أوصاهم ان لا يخبروا أحداً بذلك وعاد الى غرفة غريب فاذا به مطل من النافذة ينظر الى ذلك الرجل وقد كاد يتميز غيظاً حتى كأنه م ان يلقي بنفسه من تلك النافذة لنصرة تلك المرأة

فلما دخل احمد انتبه غريب فالتفت اليه قائلاً من هو هذا الوحش الذي يضرب هذه المسكينة قال له ان لهؤلاء ياسيدي قصة سأتلوها عليك الآن . ثم سمعا صوت رجال غرباء فى تلك الدار وقد دخلوا وضربوا الرجل وخلصوا المرأة وجاءوا بها الى بيت الحريم . كل ذلك والرجل ينادي باعلى صوته قائلاً أنى لكم ان تأخذوا امرأتى منى أليست ملكي ولي ان اتصرف بها كيف اشاء فتعجب غريب من هذا القول والتفت إلى احمد قائلاً أصبح انها امرأته . قال نعم ياسيدي . قال يظهر انهما متخالفا الرتبة والنوق . قال نعم وسبب ذلك انه حكم هذا القطر منذ بضعة قرون جماعة من الشراكة وغيرهم يقال لهم الممالك فكانوا فى أول الامر خداماً فى دور الخلفاء العباسيين وغيرهم يرسلون اليهم من ولاتهم فى تركستان فى جملة هدايا أخرى بدلا من الجزية فلما اعتنقوا الديانة الاسلامية وتعلموا وثقفوا أحبهم الخلفاء وعهدوا اليهم فى عدة من مصالح الدولة فقلدوا بعضهم الولاية وبعضهم الخراج وبعضهم أماراة السر الى آخره وما زالت أنفسهم تتوق الى السلطة وحب السيادة حتى تأتى لهم ذلك فى اواخر

الدولة العثمانية فصاروا امراء أشبه بمدراء ولكنهم أرادوا الاستبداد فسعت الحكومة العثمانية في إبادتهم فلم تفز حتى كانت أيام أفندينا محمد علي باشا عزيز مصر الحالي فعمد منذ نحو ١٢ سنة الى مكيدة ذبحهم بها عن آخرهم في القلعة التي شاهدتها عن بعد في هذا الصباح ثم أمر بالقبض على كل ما يملكونه من المال والمتاع وأذن لرجالهم من الجند وغيرهم في التزوج بنسائهم فاصبح هؤلاء النساء في حالة شر من الموت عليهن لأنهن بعد ان كن في عز وغر أصبحن اماء لرجال لم يكن يقبلنهم عبيداً لهن وهذه المرأة كانت من نساء أمير من هؤلاء الامراء فكان نصيبها التزوج بهذا الرجل وهو من عساكر العزيز فتراه ناقماً عليها يضربها لأقل سبب وقد مضى على هذه المسكينة عشر سنوات او أكثر وهي في مثل هذا العذاب يأتيها كل ليلة وقد أسكره الحشيش والخمر فيعاملها كما رأيت فتأثر غريب لهذه القصة حتى كاد يبكي . وبينما هم في الحديث دخلت خادمة تقول لسيدها ان السيدة كاملة تريد الدخول لتكلم الامير فسأل غريب عن تلك السيدة فقال احمد هي المرأة التي نحزن بصدها . فقال دعوها تدخل فدخلت والدموع ملء عينيها وترامت على قدمي غريب قائلة اني ملتجئة اليك ياسيدي فانزعرك اليك ورأس أبيك أن تنقذني من هذه الورطة فتأمر رجالك أن يحملوني من هذا المكان الى حيث تشاءون لأنهم اشداء فاتخلص من هذا الانسان المتوحش . وكانت تقول ذلك وهي تجهش بالبكاء فارداد قلب غريب رقة وحنواً فاهضها وأجلسها قائلاً لا تخافي يا خالتي أنا أكرم أبي الليلة ان شاء الله واستحلفه أن يخلصك من هذا الرجل فتذهبي معنا الى لبنان . قالت يا حبذا ذاك ثم قال لاحمد أتريد أن تبقيها في بيتك الى الغد لرى والدي ونكلمه قال حسناً وإما أخشى تبعة ذلك فقال غريب لا تخف فاني أخبر أبي بحقيقة الامر فتقدمت السيدة وقبلت غريباً وألحت عليه أن لا ينسى . فوعدها وقد امتلأ قلبه شفقة عليها . أما زوجها فكان قد خرج يريد عرض دعواه الى أغا الضابطة فقبل له ان دعواه مع ابن الامير بشير الذي هو صديق حميم لعزيز مصر فتوقف على أمل ان يسترجع امراته باللطف

أما غريب فخرج برجاله واحمد يطوفون المدينة حتى وصلوا قلعة الجبل فقال أحمد هذه قلعة الجبل فيها ديوان الحكومة وفي هذه القلعة قتل المالك كما أخبرتك

فلما وصلوا بابها اعترضهم خفير عليه لباس غريب لم ير غريب مثله وهو تنورة بيضاء كثيرة الزم والتجعد لا تتجاوز الركبتين عليها منطقة من الحرير الملون قليلة الشد وفوق ذلك الجمدان الجوخ المزور وعلى رأسه طربوش طويل مثني الى الوراء تتدلى منه طرة طويلة وفي منطفته زوج غدارات وطبنجة وخنجر وقد تقلد سيفاً منحنياً وكان طويل النجاد مستوي القامة كبير الشاربين حاد العينين تظهر عليه ملامح الشجاعة والنشاط غطاه احمد يستأذنه في الدخول فأذن لهم فلما دخلوا سأل غريب عن ذلك الرجل . فقال احمد هذا من جماعة الارنؤوط وهم جنود من جهات البانيا في الرومي وكان منهم تحت قيادة محمد علي باشا أول تدخله في حكومة مصر اربعة آلاف وكانوا له عوناً في كثير من أعماله

وكان دخول غريب ومن معه من باب العزب المشرف على الميدان ويتصل الى هذا الباب بمرتفع أشبه بتل منبسط . فقال احمد لغريب قبل الدخول انظر ياسيدي ان لهذا التل وهذا الباب حكاية سأتلوها عليك. فلما دخلوا من الباب. اتصلوا منه الى مضيق صخري والقلعة قائمة على سفح الجبل وقد نحت كثير من جدرانها من صخر الجبل عينه ويتصل من ذلك المضيق الى ابنية القلعة وهي كناية عن بلد صغير لسعتها فلما صعدوا الى أعلى ذلك المضيق قال احمد هذا هو المكان الذي ذبح فيه الامراء المالك وكانوا اكثر من اربعمائة قد أتوا بالملابس الرسمية مدعويين لتناول القهوة في سراي القلعة احتفالاً بخروج طوسون باشا بن محمد علي باشا لمقاتلة الوهابيين في شبه جزيرة العرب بآشارة من مولانا السلطان . فتناولوا القهوة في القاعة التي ستشاهدونها في صدر القلعة حيث مجلس العزيز وقد وقف الرجال صفوفاً للخروج بالوكب وكان العزيز قد تواطأ مع قواده على اهلاكهم فلما اقترب الوكب من هذا الباب حوصر المالك في هذا المضيق

يحيط بهم الارنووط من ناحية والمغاربة من أخرى ثم أقفلت أبواب القلعة بغتة وقتل هؤلاء المالك عن آخرهم ولم ينج منهم الا أمير عاقه شأن من شؤون بيته فجاء الاحتفال متأخراً فلما وصل الى الباب وكان الموكب آتيا للخروج اختار التربص خارجاً حتى يخرج الموكب فيسير في أثره فوقف بجواده خارج هذا الباب فوق ذلك التل المنبسط ولم يمض الا القليل حتى سمع اطلاق البارود ورأى الابواب قد أقفلت فعلم انها مكيدة فمزج جواده طالباً الصحراء فراراً من الموت ولم نعد نسمع عنه شيئاً



الملوك الشارد

كل هذا الحديث وغريب ومن معه سكوت يصفون الى احمد ثم امعنوا في القلعة وم يتحدثون في حكاية المالك ومذبحتهم حتى أتموا مشاهدة القلعة

وما فيها من المشاهد كدار الضرب (الضربخانة) وغازن الاسلحة والبئر المدعوة بئر يوسف نسبة الى السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي باني تلك القلعة . ثم جاء بهم احمد الى مرتفع فاشرفوا على القاهرة وإذا هي متسعة كثيرة المباني تحيط بها البساتين المغروسة بالنخل ويتخلل منازلها الحدائق ولكنهم لم يروا في جوها الصفاء المعهود في جو سوريا لما يتخلل هواء القاهرة من الغبار المتصاعد من الطرق . وشاهدوا وراء كل ذلك نهر النيل المبارك وقد تكسرت على سطحه أشعة النور فاكسبته رونقاً بديعاً وقد دهشوا على نوع خاص لكثرة المآذن التي تعد بالمئات

ثم نزلوا من القلعة وقد مالت الشمس نحو المغيب فاستحضر لهم احمد حميراً لركوبهم قائلاً ان ركوب الحمير هنا رياضة لطيفة لسرعة جريها وإراحة راكبيها فركبوا وعادوا حتى مصر العتيقة فنزلوا في المدينة الى جزيرة الروضة فلما وصلوا القصر أسرع غريب مستعلماً عن مجيء الامر فقبل له أنه جاء فدخل عليه وقبل يديه فسأله عما رآه فقص عليه القصة وطلب اليه ان يقعد تلك المرأة المسكينة فقال له ما ليا ولها يا بني اننا في بلاد غريبة فألح عليه واستحلفه فاستدعى احمد خفي القصة فامره ان يفكره بها في الغد . أما غريب فسار بعد العشاء الى حجرته وكتب الى والدته كلما شاهده من الأول الى الآخر

الفصل الثاني عشر

صعيد مصر

وفي صباح اليوم التالي جلس الامير لتناول القهوة مقطب الوجه وولدها وغريب بجانبه فاستولى السكوت على من حضر ولم يحمر واحد منهم أن يسأله عن سبب ذلك ولا عن أمر المرأة ونجاتها من مغالب ذلك الحشاش وفيما هم على هذه الحال جاء أحد خفراء القصر ينبئهم ان حنا البحري في الباب فنهض الامير لاستقباله مرحباً به واجلسه بالقرب منه وبعد تبادل التحيات بلغه البحري وأن

العزير بعث الى مديره بمصر يأمره بارسال سعادتك الى بني سويف في الصعيد حيث تمكثون في طمانينة ريثما يعود افندينا من الاسكندرية فنتلون بغيتكم ، ثم افهمه أن العزير امر له بعشرة آلاف قرش شهرياً والعلف الكافي فسر الامير وامر بالتأهب للرحيل فجاءته معدات السفر من ذهبيات وقوارب لنقل الرجال والامتعة والزاد فركبوا على النيل ومعهم الخبراء والبحارة فكانوا يقلعون نهراً و يرسون ليلا عند الشاطيء ومعهم كل ما يحتاجون اليه من معدات الطعام والرفاد

أما غريب فلم يكن همه الا الاستفهام عما يشاهده على ضفاف النيل من الآثار فمر بالجيزة فرأى من ورائها الاهرام العظيمة فسأل عنها فقال له بعضهم أنها مبان هائلة من صنع الجان فلم يعبأ بقوله لعله ان الجان اسم لغير مسمى وما زال يسأل حتى علم أنها قبور لجثث الملوك اعتقاداً منهم ان اجسادهم المحنطة ستعود فتحي بعد أجيال فبنوا لها هذه الاهرام لحفظها من طواريء الحدثان حتى يأتي زمن بعثها

فلما كان المساء رست بهم الذهبيات ونزلوا إلى البر فلاحظوا أولاً أن النيل يجري من الجنوب إلى الشمال في أرض خصبة يحدها من الشرق والغرب جبلان يمتدان طولاً على موازاة النيل مسافة أيام ولذلك سمي الصعيد وادي النيل. وفيما كان غريب يتأمل في الفرق بين نوع أرض لبنان ونوع أرض مصر طرق ذهنه أمر المرأة التي وعدّها بالنجاة فأسرع إلى الامير فرآه جالساً أمام خيمته على ضفة النيل فذكره بالمرأة فأجابه قائلاً اني قد أخبرت حنا البحري بالقصة وكلفت احمد أن يساعده في الوصول إلى النتيجة وعلى الغالب أنها تطلق من زوجها وتخبر في السكنى حيثما تشاء فاما نحن فلا يمكننا يا ولدي أن نعملها معنا حيثما توجهنا اذ لا يكون معنا من الحريم غيرها وانت تعرف عوائد هذه البلاد وتحجب أهلها . فقبل غريب يد الامير وأثنى عليه

فباتوا هناك طول الليل ونهضوا في الصباح وعادوا إلى مراكبهم وأقاعوا إلى المساء وكانت الريح هادئة ومسيرهم معاكساً لجرى النيل فكانت مراكبهم تسير ببطء وفي المساء يبيتون على الشاطيء الغربي غالباً لأنه أكثر عمراً وأخصباً

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا مدينة بني سويف فتلقاهم كاشفها بالترحاب وأنزلهم في دار معدة لهم في الفشن على ضفة النيل ولكنه ارتعد عند مشاهدة الامير بشير لما في وجهه من الهيبة

الفصل الثالث عشر

ضياع غريب

وكان الامير قد جاء معه من بر الشام بعدد من الخيل الاصيلة قدم منها خمسة للعزير وبقي معه بعضها لركوبه وركوب أولاده وبعض خواصه في ذات يوم بعد نزوله في الفشن اشتاقت نفسه للفروسة فبعث يسأل الكاشف عن ميدان للعب الخيل فاخبره ان في البر الشرقي وراء ذلك الجبل سهلا رمليا يصلح لذلك فبعث الخيول با كراً تقطع النيل ثم قطعه هو وأولاده وما زالوا ومعهم الاتباع والخدم والكاشف حتى وصلوا ذلك السهل فضربوا الخيام واستحضروا ما يحتاجون اليه من طعام وشراب لذلك اليوم

وكان وصولهم الى ذلك المكان بعد شروق الشمس بقليل فتركوا الرجال ينصبون الخيام ويحضرون المعدات وسار الخيالة يجولون ويلعبون على خيولهم وكان غريب في جملتهم لأنه تعلم الفروسية وهو في سن السادسة وكان اذا ركب جواده كأنه والسرج قطعة واحدة وتعلم رمي الجريد ولعب الحسم والسيف والترس فجعل يركض جواده وقد سدل الكوفية على رأسه اتقاء الحر فذهل الجميع لا سيما الكاشف ورجاله وامتدحوا شجاعته وفروسته على مسمع منه فزاد همه ونشاطاً وكان راكباً جواداً من خيل أبيه فتعب الجواد ولم يتعب ثم ترجل ودنا الكاشف منه يمدحه بما هو أهله وتقدم الامير وقبلة ثم التفت غريب فرأى جواد الكاشف واقفاً فسأله اذا كان يأذن له في ركوبه ليجربه فلم يسمعه إلا الاجابة ولكنه قال له ان يحذر منه لأنه جموح اذا ركب رأسه لم يثنه شيء فضحك غريب معجباً وقد ثار في رأسه عنفوان الشباب واعتلى

صهوة ذلك الجواد الاشهب وكان جميع الحيلة قد نزلوا عن خيولهم لأنها تعبت وأخذوا ينظرون الى ذلك الخيال الصغير ويعجبون

أما غريب فما اعتلى الجواد حتى شعر انه جموح ولكنه أبى إلا أن يركضه فلكرهه لكزة قوية فذهب الجواد صوب الصحراء وسار ملة عنانه فظن الواقفون أن ذلك كان بارادة غريب وانه لا يلبث أن يرجع به ولكنهم انتظروا فلم يعد وأوغل في الصحراء متوارياً عن الابصار فصاح الامير بشير برجاله قائلاً لقد ضاع الغلام فلم اليه فركب جماعة منهم واقتفوا أثره والامير ينتظرهم كأنه على جمر الغضا

وكانوا قد أعدوا الطعام ودعوا اليه جلسوا وأبصارهم شاخصة الى الافق لعلمهم يرون الحيلة راجعين فمضت ساعة وساعتان ولم يظهر أحد فالتفت الامير الى الكاشف وكان تركي الاصل فاذا به أصفر اللون مضطرب لا يستطيع أن يتفوه بينت شفة فقال له الامير وما رأيك في هذا الغلام فقال له الله أعلم يا سيدي وإنما أخبر سعادتك أن جوادي هذا لم اشتريه إلا منذ بضعة أيام من أحد العربان ولم اختبره بعد وإنما قال لي أنه جموح صعب المراس فقال له الامير هل تعرف العربان الذين ابتعته منهم قل لا أعرف اسماءهم وإنما أعلم أنهم من عرب بني واصل القاطنين في هذه الصحراء . فوقف الامير على قدميه صارخاً « لا بد أن الجواد قصد تلك القبيلة فهل عندك أحد ممن يعرف الطريق اليها » قال نعم وإنما الطريق صعب خطر . قال لا تكلمني بمثل هذا الكلام فانتا لا تعرف الخطر ولا الحوف فائتني ببعض الخبيرين الذين يعرفون الطريق وأنا أسير بنفسي للتفتيش عن الضائع فنهض ابنه خليل وأمين وغيرهما من رجاله قائلين لا لا يا سعادة الامير فانتا نحن الناهبون

فركبوا وأمسكوا ابني الامير عن الركوب معهم أما الامير أمين فلم يقبل لأنه كان يحب غريباً عجة عظيمة كما تقدم وقد وبخه ضميره لأنه هو الذي سعى في استحضاره الى مصر فاحتدمت في رأسه النخوة وآلى على نفسه أن لا يرجع إلا بعد أن يجد غريباً ويعود به سالماً

الفصل الرابع عشر

التفتيش عن غريب

فانقسم الخيالة قسمين قسم سار شمالا وقسم سار جنوباً وكان الامير امين في القسم الجنوبي وكان مع كل من القسمين خير عارف بالطريق واتفق الخبيران على ان يلتقي القسمان عند الغروب في مكان متوسط بين الجهتين يعرفانه للاطلاع على نتيجة البحث والمشورة في ماذا يفعلونه

ولما جاء الغروب ولم يعد أحد منهم زاد قلق الأمير على ابنه أمين وباقي رجاله فالتفت الى الكاشف فاذا هو غارق في بحر الهواجس فسأله عن أمره فقال يا سيدي قد غلط الأمير أمين بمسيره بهذا العدد القليل من الرجال لأن البدو القاطنين هذه الصحراء قوم غزاة والحكومة لم تسنطع احصاءهم حتى الآن وفيهم قطاع الطرق واللصوص حتى انهم كثيراً ما يهاجمون هذه البلاد وينهبونها مع سهر افندينا العزيز الذي دوخ البلاد وأهلك المالك فان هؤلاء العرب لم يزلوا من الخونة العاصين وقد اعاد المالك قبل مهلكهم أن يلنجنوا اليهم في حال فرارهم من وجه الحكومة فلا نعلم ما تكون ارادة المولى

وكان الكاشف يتكلم وعينا الامير بشير تنقدان وأصبح منظره كالأسد الكاسر ثم التفت الى الكاشف قائلاً فاذا كانت الحال كذلك فلا بد لي من الركوب لأتبع أثر هؤلاء لعلمهم يكونون في شدة على اني أعلم يقيناً انهم أشداء لا خوف عليهم فان بينهم عدة من بني الدحداح وفيهم خيالة مشهورون ولكن يجب علي تنبع أثرهم إذا غربت الشمس ولم يعودوا ولا من يخبر عنهم

فأحب الكاشف أن يثني عزمه فأصر وأمر أن يسرج له على الجواد وفيما على هذه الحال نظروا فرأوا في عرض الافق عثراً ظهر من تحته خيالة فاستبشروا فلما اقتربوا منهم إذا هم قليلو العدد وليس فيهم الأمير أمين فقالوا له يا مولانا أن الأمير أميناً لم يشأ المجيء معنا وقد آلى على نفسه أن

لا يرجع ما لم يقف على خبر الامير غريب وقد دفع هذا الكتاب الى سعادتك
فتناوله وفضه فاذا هو يقول فيه :

سيدي وملاذي

أقبل يديك . وبعد فلم أتأخر عن المحيى اليك مع من جاء الا لأننا لم نظفر
بغريب وأنا أشعر اني السبب في محيئه الى مصر ولذلك آليت على نفسي أن
لا أرجع إلا بعد ان أجده فالتمس منك المذرة . ولا تقل اني خالفت أوامرك
فاني لم أرني قادراً على العود اليكم بدون أخي غريب وقد أبقيت معي عشرين
فارساً من رجالنا تطيباً لحاظرك والسلام
ولذلك المطيع

أمين

فالتفت الامير الى حامل الكتاب وقال له أين تركتم أميناً فقال ياسيدي
اننا بعد ان تركناكم انقسمنا قسمين قسم سار شمالاً وقسم سار جنوباً واتفقنا
على ان نلتقي عند الغروب في مكان متوسط فيه ماء لنعلم عاقبة سعينا . فسرنا
نحن نحو الشمال وبحشنا طويلاً فلم نقف للضائع على أثر فخرجنا نحو الملتقى فالتقينا
بالامير أمين ورجاله فسألناهم عما كان من امرهم فقالوا انهم لم يروا أحداً وإنما
مرادهم أن يقصدوا قبيلة بني واصل في هذا المساء وهي بالقرب من مكانهم إذ
ربما كان الجواد قد قصد تلك الجهة لأن هذه عادة خيول العرب فقال لنا
الامير أمين الا صوب أن تسيروا وتخبروا والدي وتطيقوا خطره ودفع اليها
هذا الكتاب فأتينا به الى سعادتك امثالاً لما أمر

فاضطرب خاطر الامير بشير عند سماع ذلك وأطرق هنيهة ثم قال خير لنا
أن نتكل على المولى القدير وهو قادر أن يرد ضائعنا ويحفظنا فسأله الكاشف
اذا كان يريد العود الى البلدة للمبيت تلك الليلة فقال الامير كيف نبيت نحن
في القصور وأولادى في الصحراء تحت الخطر الشديد ولعلنا نحتاج في منتصف
الليل ان نسير الى غياهم فلنبق هنا لئلا يكون من الامر

وبعد تناول العشاء اجتمع الامير بشير وولده خليل في خيمة فشعرا أن
الدنيا كلها ظلام لتغيب الاميرين أمين وغريب وكونهما في حالة الخطر فجلسا
يتحدثان في ذلك الشأن

الفصل الخامس عشر

الامير امين

أما ما كان من أمر الامير امين فانه بعد أن استراح هو ورجاله عند ذلك الماء وكان الليل قد أظلم فشاور رجاله في الامر فاذا هم متشجعون جميعاً إلا الحبير فانه تغيرت أحواله ووقع في خوف عظيم وتقدم الى الامير امين قائلاً لعش رأس الامير اننا الآن في حال الخطر ولما جاء جماعة الى هذا المكان ونجوا لأنّ عرب هذه الجهات فرع من عرب العبايدة المشهورين وهذه القبيلة التي هي أقرب الجميع اليها تعرف بقبيلة بني واصل وهي على جانب عظيم من البأس وسعادتكم تعلم ان هؤلاء البدو لا يستحرمون عملاً وم يعيشون بالنهب والسلب ينامون نهاراً ويسرحون ليلاً فاني أضن عليك أن تلقي بنفسك في هذا الخطر العظيم . فالتفت اليه الامير امين قائلاً اني عالم بكل الاخطار ولست أجهل شيئاً منها وان كنت تراني شاباً فقد اخترت واختلطت بامثال هؤلاء كثيراً في جهات الشام وإنما أطلب اليك ان تتشجع وتصدقني الخدمة . ثم التفت الى رجاله وقال لهم وكيف أنتم فقال نحن عبيدك وأرواحنا رهينة أمرك ومستعدون جميعاً أن نذهب فداء الامير غريب فشكرهم ثم رتب مسيرهم وأخبرهم كيف يجب أن يحفظوا مراكزهم بالقرب من بعضهم البعض

ثم ركبوا خيلهم وساروا في ظلام الليل قاصدين قبيلة بني واصل وقد شرعوا سلاحهم للدفاع وجعلوا في مقدمتهم رجلاً ناقلاً مشعلاً متقدماً استثناساً بالنور وإيهاماً لمن يراهم انهم من أهل ذلك البر . فساروا خبياً في ذلك الليل ولم لا يشاهدون حولهم إلا اففاً مظلماً لا يتخلله شيء من العمارة

وبعد مسير نحو ساعتين ظهر لهم شبح كأنه فارس سائر على مقربة منهم نحو اليمين فأمر الامير بعض رجاله أن يقتني أثره ويسأله عن أمره فسار وعاد حالاً قائداً جواداً ليس عليه الا السرج فلما رآه الحبير صاح بأعلى صوته هذا

هو جواد الكاشف فأين الغلام فوقف الجميع وتقدم الامير أمين الى الجواد وتأمله فتحقق قول الحبير فقال رجل منهم الارجح أن الغلام سقط عن ظهر الجواد فقال الامير أمين ان غريباً لا يقع عن ظهر الجواد فقد عرفته منذ كان اصغر من ذلك في ارض أكثر وعورة . فما رأيكم

فتقدم منهم من هو أكثر اختباراً من الجميع وقال له ياسيدي الامير ورأس أبي سعدى « يريد الامير بشيراً » ان الغلام لم يسقط عن ظهر الجواد رغم ارادته فاني اعرف ثبوته ومما يؤيد ذلك أن السرج لا يزال كاهو والركاب لم يتحرك من مكانه فلو فرضنا سقوطه رغم ارادته لما أمكنه اخراج رجله من الركاب بل لبقى معلقاً يجر وراء الجواد لأن هذا النوع من الركاب يمسك الحذاء والحقيقة لا يعلمها إلا الله . وأما مسيرنا الى قبيلة بني واصل فلم يعد له لزوم إذ قد تحققنا ان الجواد لم يصل الى هناك بعد وبالأولى ان غريباً لم يصل والاصوب على ما أرى ان نعود من طريق غير الذي جئنا فيه ونتفرس في عرض هذا البر ونسير سيراً بطيئاً وليتأمل كل منا في طريقه والافضل أن نكثر من المشاعر ونجعل بين كل اثنين منا مشعلاً لكيلا يضيع بعضنا من بعض ونتبع السير هكذا حتى نصل الى محل الميدان . فاستحسن الجميع هذا الرأي وساروا جميعاً على هذا الترتيب ولم يسمع وقع اقدام خيولهم لان الارض رملية هناك وكل منهم عينه أمامه يتأمل بما على الارض لعله يرى شجراً أو أثراً يستدل منه على شيء والركب صامنون والطبيعة هادئة

وبعد مسير ثلاث ساعات اجفلت خيولهم بغتة وأخذت تصهل كأنها شاهدت أمراً خيفاً فصاح الامير أمين قفوا فوقفوا الا جواداً لم يهدأ مطلقاً ثم صاح راكمه اني أشاهد جثة ملقاة على الارض . فلما سمع الرجال ذلك تقدموا جميعاً الى جهته فاذا بجثة مزرجة بالدماء وسمعوا منها أنيناً خفيفاً خفقت قلوبهم قداموا المشاعر اليها وتقدم الامير أمين وتأملها فاذا هي جثة رجل اسمر اللون متوسط العمر عليه ثياب العربات نخطبه فلم يحبه ففتشوا جراحه فاذا هو مضروب بسيف على عنقه وقد كسرت الضربة العظم فقال الحبير هذا رجل من قبيلة بني واصل وأنا أذكر أنه من قطاع الطرق فما لنا وله لنسر في طريقنا . فتهد الامير

امين وقال لا أقدر أن أتركه ملقى على هذه الحال فانه يمثل لي منظرًا لا أراه
الله أما الآن وقد مات الرجل فلنحضر له حفرة نواريه فيها فذلك خبر من أن
تأكله الوحوش

فأمر بعضاً من رجاله بحفر حفرة وفي أثناء ذلك وقف الامير أمين يتأمل
بهذا الميت ويتوسل الى الله أن يقي أخاه من مثل ذلك وقد كاد قلبه يفسطر. وبعد
يسير تم حفر الحفرة فجاءوا ليحملوا الجثة خالماً قلبوها شاهدوا في حجر الميت
شيئاً غير ثيابه فاستقدموا المشاعل وتفرسوا في ذلك الشيء فإذا هو كوفية من
الحرير وعليها العقال وفي الحال صاح الامير امين قائلاً هذه كوفية غريب تعالوا
فتشوا هذا الميت لعلنا نقف منه على شيء فاجاب أحدهم وفتش الجثة فوجد عقداً
من الذهب فاعطاه للامير فقال وهذا لغريب أيضاً ولما لم يروا شيئاً غير ذلك
واروا الجثة ومكثوا يفكرون بهذا الحادث وقد ارتاعوا لذلك المنظر
أما الامير أمين فانه اهتم راحة أخيه من ذلك العقال وذلك العقد فاضطرم
فؤاده وحسب الف حساب فبعث رجاله يفتشون ذلك الجوار

الفصل السادس عشر

غريب

أما الامير أمين فوقف ملسوع القلب وقد خيل له انه سيرى أخاه مخرجاً
بدمائه مثل ذلك الاعرابي فبهت مفكراً في ذلك الليل الدامس وتصورت له والده
غريب وما يلم بها لو أصاب الغلام سوء فكانت عواطفه تتلاعب به تلاعب الريح
باللهيب وكان يشعر كأنك تصب عليه ماء حاراً تارة وماء بارداً أخرى . ثم
تذكر أنه كان السبب في محبى غريب الى تلك الارض فهب من ساعته مرتعداً
وقد اتقدت في قلبه الحمية والشهامة ثم آنس عن بعد ضوءاً خفيفاً فركب جواده
وسار بغير مشعال قاصداً جهة ذلك النور وقد عزم أن يتجرى البحث بنفسه
ولم يعد يخشى بأساً ولا يقدر عاقبة

وبعد مسيرة برهة تمثل له عن بعد شبح فارس واقف وسمع صوتاً يناديه:
 « ارجع من عندك يا كلب العرب والا أعدمناك الحياة » فصاح الامير امين:
 « من أنتم يا قوم فاننا لسنا من العرب تمهلوا لتتقابل فان لي عندكم مسألة »
 فقاطعه ذلك الصوت قائلاً تكلم من عندك ولا تقترب الينا
 فقال الامير نحن عدة رجال ولسنا من أهل هذه الارض وإنما ضاع لنا
 ضائع فنحن ساعون في التفتيش عنه

فلم يتم كلامه حتى سمع صوت رجاله ورائه مغيرين على خيولهم نحو مكانه
 فوقفهم ليتم حديثه مع ذلك الفارس فاذا به قد تقدم اليه وكانت المشاعل
 قد اقتربت فتفرس الامير في ذلك الفارس فرآه ملثماً بكوفية بيضاء وقد التف
 بيرنس أبيض وراكباً جواداً أزرق فلما اقترب من الامير امين قال مرحباً بكم
 لقد ظفرتم بضالتكم

فلما سمع الامير امين ذلك خفق قلبه ونادى أين غريب . فقال ذلك الفارس
 هو عندي سليم معافى فكُن مطمئناً . ثم سار بهم مسافة ميل فوصل الى محل ذلك
 النور وإذا هناك مضرب منصوب ثم قال لهم لا تدخلوا جميعكم معاً فقال الامير
 امين أنا أدخل فقط لأن الضائع أخي . فادخله الى خيمة فيها مضجع وبجانبه
 رجل جالس فتقدم الامير امين بلهفة منادياً أين غريب . فقال له الفارس هذا
 هو نائم هنا فتقدم اليه وتأمل وجهه فاذا هو معصوب الرأس مغمض العينين
 فأمسك الفارس بامير قائلاً لا توقظه فانه محتاج الى الراحة . فقال ما باله
 معصوب الرأس قال انه مصاب بجرح خفيف وقد ضمدناه وهو سليم باذن الله
 فسكن روعه وجلس يستفهم من ذلك الفارس عن حقيقة الامر
 فقال له هلم بنا الى الخارج لاقص عليك الامر فخرجا

فقال الفارس خرجت في اصيل هذا اليوم للصيد والقتص وفيما أنا عائد
 الى هذا المكان سمعت منادياً يستجير فتقدمت جهة الصوت فرأيت هذا الغلام
 بين يدي اربعة من العربان وقد ضربه أحدم بعصا على رأسه وحاول ان يجهز
 عليه فصحت صيحة قوية وضربته بالسيف على عنقه فسقط على الارض وفر
 رفقاًؤه وكان بجانبه جواد فر منه فتقدمت الى هذا الغلام وقد اغمى عليه من

الام حملته على جوادي وجئت به الى خيمتي ففسلت جراحه باللبن وضمدتها واعطيته قليلا من اللبن فشرب وهو بين القنطرة والقيوبية وفرشت له وسادة لينام . وبعد ان اخذته سنة النوم تركته وكان قد مضى هزيع من الليل ثم تركت الخيمة وأوصيت خادمي ان يعتنى به وخرجت أراقب حركات اللصوص حذراً من أن يأتوا إلينا بعدتهم ورجالهم ولم يمض قليل حتى أتيتهم ورأيتهمونا على هذه الحال

وكان الامير في اثناء تلك القصة يراقب حركات ذلك الرجل ويحاول ان يعرفه ولكنه لم يستطع ذلك لأنه كان ملثماً فلم يقدر ان يرى الا عينيه وإنما استدل من صوته على انه ليس بدويًا وان لسانه قريب من اللسان المصري فلما أتم كلامه تقدم اليه الامير امين وعانقه وهتف قائلاً لقد غمرتنا بلطفك واحسانك وأوليتنا جميلاً لا ننساه مدى العمر فآله يجازيك عنا خير جزاء وإنما أتجاسر عليك بسؤالي لعلني احصل منك على جواب قال سل ما بدا لك . فقال هل لك ان تفيدني عن اسمك وسبب عيئك الى هذا المكان إذ يظهر لي أنك لست من سكان البادية

فتنهذ الرجل وقال ليس هذا وقت الاجابة على سؤالك فدعنا منه الآن وتعال انت ورجالك للاستراحة هنية إذ يظهر أنكم أجهدتم انفسكم في التفتيش عن ضالتكم قال نعم اننا لا نزال نحول في الصحراء منذ ظهر اليوم فقال الرجل لهم إذن الى الطعام والاستراحة

فنهض الامير ولكنه لم يستطع المرور من امام خيمة غريب بدون ان يدخل اليها ويستطلع احواله فرآه لا يزال راقداً كأنه ملاك وقد كلل العرق جبينه وبجانبه الخادم يذب عنه الذباب . فأراد ان يقبله فنهض الرجل خوفاً من أن يوقظه . ثم نادى الامير بعضاً من رجاله وأمرهم أن يسيروا حالا لتبشير الامير بشير بأن غريباً معهم فبعث معهم ذلك الرجل بعض الخدم ليدلوم على الطريق فساروا بعد أن أوصام الامير أمين أن يخبروا أباه انه وجد غريباً وأنه سيكون عنده غداً ان شاء الله فساروا طالبين ساحة الميدان

الفصل السابع عشر

ضيافة بدوية

فعاد الامير امين وجلس ومن معه من الرجال الى المائدة أما صاحب الضيافة فلم يجلس معهم ولكنه وقف يخدم ضيوفه مع أن الخدم كانوا عنده كثيرين وتلك عادة العرب في ولائهم

أما المائدة فكانت طبقاً كبيراً من النحاس عليه ذبيحة من الضأن وصبرة من الارز فوقها السمن الكثير . وكان الامير امين ورجاله يعرفون عوائد البدو فتناول الامير قطعة من رأس الذبيحة وأعطاهها لصاحب الضيافة فعرف الرجل ان ضيفه بمن خالط البدو وعاشرم . وكان جلوسهم جثواً على ركبة واحدة يتناولون الطعام باصابعهم من الارز واللحم ويجعلون اللقمة على شكل الكرة ثم يدفعونها بالابهام الى افواههم

ولما انتهى الطعام شرعوا في عمل القهوة المشهورة عند البدو فعمدوا الى أجران من الخشب وجعلوا يدقون البن بمدقات يسمع لها صوت ألد الى سمعهم من نغم الموسيقى فان لهم دقا في البن المحمص بالاجران المصنوعة من خشب البطم بأسلوب يطرب الاسماع ويشنف الآذان. وبعد دقها غلاها الخدم على النار ثم جاءوا بها الى صاحب البيت فسكب الفنجان الأول لنفسه ثم سكب لضيوفه مبتدئاً من الامير امين حتى انتهى الى أقل رجاله . وكان الامير امين ورجاله قد تعودوا شرب قهوة البدو المتقنة لما يجعلونه فيها من الافاويه كالهار وكبش القرنفل وحب الهان وغيرها فانشرح كثيراً ولا سيما بعد أن سكن روعه بلقاء غريب

وبعد تناول القهوة طلبوا الرقاد فساروا الى أما كن أعدت لهم فلم يرض الامير امين أن ينام الا في غرفة غريب ولكنه تأملها هذه المرة جيداً فاذا هي مصنوعة من الشعر الاسود كسائر خيم البدو ولكنه لم يرها مقسومة قسمين كما

جرت عاداتهم بان يجعلوا الخيمة قسمين قسماً للنساء وقسماً للرجال فظن تلك الخيمة جعلت كذلك عمداً فاضطجع . وفي الضحى استيقظ غريب ففتح عينيه فرأى أخاه أميناً فوق رأسه فكاد يذهل فقبله أمين وابتدره بالكلام وطيب خاطره . فقال أين أولئك اللصوص أولاد الحرام فقال قد ذهبوا وليس منهم أحد فكن مطمئن البال ولا تجزع فانت بين يدي وأنا أخوك أمين . قال : أمين أمين أين والدي وأين ذلك الجواد أين والدتي . . .

فاخذ أمين يسكن روعه ويخفف عنه حتى صحا تماماً فقال نشكر الله على ما جرى فسأله أمين عن حقيقة الامر فقال غريب بعد ان ركبت ذلك الجواد جمع بي في عرض البسداء فلم أعد أقدر على كبح جماحه وهو لم يقدر أن يرميني فظل يعدو بي أكثر من ساعتين يسير تارة تيمناً وطوراً شمالاً وبيدنا أنا في ذلك رأيت بعض الناس عن بعد فخلعت أناديهم وأستغيث بهم فجاءوا إلي وهولوا على الجواد فوقف فامسكوه وأزلوني عنه ثم تقدم الي واحد منهم وأخذ يفتشني ويطلب الي ان اعطيه مامعي فرفضت وقاومته لأنني لم أرم أفضل من الخدمة بل هم أقل كثيراً من خدمة أبي ولم أشعر الا وقد اصبت بضربة على رأسي كما ترى فسقطت ولم أعد اعرف ماذا جرى الا اني أرى نفسي في هذه الخيمة وكأنني شربت لبناً وهأنا أراك يجاني

فتقدم اليه أمين وقبله وحدثه بقصته من أولها الى آخرها وقال في آخر كلامه ان الفضل الاكبر في نجاتك إنما هو لهذا الشهم الغيور (وأشار الى صاحب الخيمة) فنطلب الى الله ان يقدرنا على مكافأته فقال غريب كيف لو تعلم والدتي بذلك اما كانت تحبه وتكرمه . وبعد أن أنما حديثهما تقدم ذلك الرجل وقال للامير أمين هل لسيدي أن يخبرني عن حقيقة أمره وأمر هذا الفتى . فقال نعم أننا أولاد الامير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان وقد حثنا الى القطر المصري منذ مدة قصيرة ونزلنا بامر العزيز في بلدة يقال لها الفشن وراء بني سويف ريثما يأتي سعادته من الاسكندرية لمقابلة والدي . ففي أمس خرجنا الى البر المقابل للبلدة لركوب الخيل فجمع جواد أخي هذا وتاه في عرض الفلا

وجرى له ما سمعت ولا شك أن والدي متى سمع حديثنا يود أن يراك فهل تراقبنا إليه

فسكت برهة ثم قال ذلك لا يمكنني لأسباب كثيرة لا يسعني أن أخبركم عنها الآن . ثم سكت ثانية وعاد فاستأنف الحديث قائلاً ولعل الاصوب أن تمكثوا عندنا بضعة أيام ربنا يبرأ جرح الامير غريب ثم تسرون بحراسة الله فقال الامير امين ذلك لا يمكننا لأن والدنا الآن في انتظارنا

قال نرسل اليه من يخبره بذلك واذا شاء المجيء نبعث اليه من يوصله الينا قال لا أظنه يجيء ولا بد لنا من الذهاب اليه في آخر هذا النهار إذ تكون الشمس قد مالت الى الغروب ولم تعد تضر بنا فاذا شئت أن تراقبنا زدتنا فضلاً والا فاخبرنا عن اسمك لنطلع والذي عليه

قال حبذا ذلك ولكن ان جمعني الزمن بسعادة والدكم فربما أخبره عن اسمي أما المكافأة فانا لم انتظرها لأنني لم أفعل ما فعلت إلا مندفعاً من نفسي من غير ان اعلم أصل هذا الغلام

ثم خرجا من الخيمة فتأمل الامير امين بتلك المحلة فاذا بها مؤلفة من عدة خيم يحرق بها سهل رملي لا يدرك الطرف آخره فازداد تعجباً من أمر ذلك الرجل وما هو فيه من التستر وأزمع أن يخبر والده عنه

الفصل الثامن عشر

الامير والكاشف

أما الامير بشير فقد تركناه في خيمته يتحدث هو وابنه الامير خليل في أمر غريب وامين ولم يمكنهما الرقاد كل تلك الليلة من كثرة المواجه فيبينما كان الامير بشير مفكراً في ذلك الجواد لاح له انه ربما كان في الامر مكيدة نصبت لبعضهم فأصاب ذلك الغلام فلما طلع الفجر بعث إلى الكاشف فجاءه فقال هل تلقيت خبراً من احد قال لا

فقال الامير اريد منك أن تقبض على الدين باعوك ذلك الجواد قال سمعاً وطاعة فبعث بعض الشرطة فجاءوا بهم اليه وكان الامير بشير جالساً كأنه طود راسخ وقد ظهرت على وجهه ملامح الغضب فنظر الى الكاشف وقال له اني لا اطلب ما افقده هنا الا منك وأنا لا أعرف سواك وأنت عليك ان تستقصى حقيقة الامر من هؤلاء العربان الذين باعوك الجواد . فوقع الرعب في قلب الكاشف واستشاط غيظاً فأمر ان يجلد هؤلاء العربان بالسوط حتى يعترفوا بالحقيقة فصرعهم على الارض وجعلوا الفلق في ارجلهم وظلوا يجلدونهم بالسياط حتى سالت الدماء من ارجلهم وم لا يفوهون بينت شفة كأنما كانوا يضربون في حديد بارد حتى تعجب كل من حضر . أما الامير فسر بذلك وأشار الى الكاشف أن يجلهم ففعل فوقف الامير وقفة الأسد ونادى هؤلاء الرجال بصوته الجمهوري قائلاً تقدموا الى هنا وم بصفعهم ثم حملق اليهم وقال لا أسأل سواكم عن ولدي فما لكم ولهذا النكران أظنون ان أمركم لا يزال مكتوماً وقد أخبرني واحد منكم عن حقيقة الامر وعلمت انكم لم تفعلوا ذلك باختياركم فأنتم غير مطالبين أما إذا أصررتم على الكتمان فلا نطالب أحداً غيركم . فصرخوا بصوت واحد ليعش رأس أفندينا نحن مظلومون فقال الامير قلت لكم انكم مظلومون إلا إذا لم تخبرونا حقيقة الامر لتنا كد ما سمعناه

فتقدم واحد منهم وتراعى على قدمي الامير وقبلهما وهو يرتجف خوفاً ورعباً وقال وحياة رأس أفندينا نحن عبيد مأمورون ولم نفعل شيئاً من تلقاء أنفسنا ولكن أمير قبيلة بني واصل أرسلنا لنبيع هذا الفرس للكاشف بأي ثمن كان ولا نعلم غرضه . فقال له الامير كفي خذوا هؤلاء الى الخفر ثم سألت الكاشف عما إذا كان بينه وبين ذلك الامير عداوة قال نعم كنت أرسلت بعضاً من رجالي فقبضوا على بعض لصوصه

فتحقق الامير الأمر فزاد اضطرابه والتفت إلى ولده وقال يا خليل ما العمل أسمع بتضحية اخويك ونحن جالسون هنا فاهتز الامير خليل لذلك ونهض حالاً إلى جواده وفعل مثل ذلك الامير بشير وسائر من عنده من الرجال

فلمسكه الكاشف قائلاً ان الحكومة مسؤولة عن هذا الامر فلم يصغ . وفيما هم في ذلك أبصروا غباراً وراء الافق انقشع عن بضعة فرسان عرفوم حالا انهم من رجال الامير فتوجه الامير لملاقاتهم وإذا هم قادمون من عند ابنه فبشروه بما كان فاطمأن خاطره ولكنه لم يزل متشوقاً ليعرف الحقيقة تماماً فتربص الى المساء حتى وصل الاميران امين وغريب ومن معهما من الرجال بعد الغروب بنحو ساعتين فاستقبلهم الامير بشير وقبل غريباً وذهب الجميع الى البر الثاني يحمدون الله على عود ذلك الغلام سالماً وكان الامير امين في أثناء الطريق يحدث والده بالخبر من أوله إلى آخره

فلما أتم حديث ذلك الرجل الذي نجى غريباً من الموت قال له والده ولماذا لم تأت به معك لكي نكافئه على صنعه قال صدقني يا سيدي إني ألححت عليه كثيراً وسألته المجيء غير مرة فلم يقبل والذي يظهر لي من كلامه وحركاته أنه ليس بدويًا والاعجب انه من أعيان هذه البلاد وقد جاء امرأً استوجب من أجله كدر عزيز مصر عليه لأنني لاحظت شيئاً من ذلك أثناء تمنعه عن المجيء معي الى هنا . ومما يقوى بي هذا الظن انه لم يرفع اللثام عن وجهه مطلقاً أثناء اجتماعي به أمس حتى ساعة وداعنا له اليوم وقد تركته في عصر هذا النهار وأنا أفكر في أمره ولا أزال أذكر جملة قالمالي ساعة الوداع وهي « بلغ تحياتي الى سيادة والدكم وأرجو أن يقسم لي الحظ بمقابلته حيث لا حرج علي على اني أظن أن عيشه الى هنا لا يخلو من المشقة عليه لبعد المسافة وقد كان علي أن أسعى اليه وإنما ذلك ليس بوسعي فاترك الامر لله ولعلي أنال خيراً اذا اجتمعت به »

الفصل التاسع عشر

كشف الخبأ

فقال الامير بشير يظهر يا امين ان الرجل في ضيق ويحتاج الى من ينفس كربته وانه كما قلت لا يستطيع المجيء الى هنا حذراً من ارساد الحكومة

فيجب علي قياماً بواجب الانسانية والشهامة ان أسير اليه بنفسه مهما كلفني ذلك من المشقة فانه أحيا لنا غريباً بعد أن أشرف على الموت ففي صباح غد ان شاء الله اركب اليه بمعيتك وبعض الرجال الذين عرفوا الطريق وكان الامير خليل يكلم غريباً في أثناء ذلك ويلطفه ويقبله ويسأله عن حديثه حتى وصل الجميع الى المنزل

وكان الخدم قد اعدوا الطعام فجلسوا لتناوله وبعد الاستراحة قليلا سار كل منهم إلى فراشه طلباً للرقاد لأنهم لم يكونوا ذاقوا النوم في الليلة الغابرة وفي الصباح التالي اجتمع الجميع في غرفة غريب وكشفوا جراحه فاداهي قد قاربت الشفاء فاوصوه أن لا يخرج من المنزل مدة يومين خوفاً عليه من تأثير الحرارة كل ذلك بمشورة طبيب الامير بشير الذي كان برفقته ثم ركب الامير بشير ببعض الرجال وولده أمين وسار قاصداً خيام ذلك الفارس بعد أن أوصى الطبيب أن يلازم غريباً وقد آلى على نفسه أن يذل ما في وسعه لاتقاذ ذلك الرجل الذي صنع معه خيراً من الضيق المستحوذ عليه وبعد بضع ساعات وصلوا تلك الخيام وكان صاحبها قد علم بذلك من بعض رجاله فخرج لاستقبال امير لبنان فلم يقدر أن يحول نظره عنه لعظم الهبة فترجل الجميع وساروا الى الخيمة الكبرى وجلسوا فحضرت لهم القهوة والدخان وأخذ المضيف يرحب بضيوفه ويوجه كلامه بنوع خاص إلى الامير بشير كل ذلك وهو ملثم الوجه

ثم مد السباط كعادة العرب وعاد الضيوف الى ساول الطعام فقال صاحب الضيافة اخشى ان تكونوا لم تألفوا الطعام على الطريقة البدوية فاجابه الامير بشير نحن جميعنا قد الفنا هذه العادة . وبعد الطعام اديرت عليهم القهوة ثانية كل ذلك والامير بشير يتأمل في حركات ذلك الرجل ويعجب لأمره ولم يصدق ان انتهى الطعام حتى طلب الانفراد به فأنفردا . فقال له الامير ارفع هذا اللثام عن وجهك إذ لم يبق من داع الى الحجاب بيني وبينك لأنك أوليتني جميلاً لا أستطيع مكافأتك عليه واعلم ان الامير بشيراً سيكون رهين كل ما تحتاج اليه وموضع سرك فارفع هذا اللثام عن وجهك وحدثني

فوقف ذلك الرجل بين يدي الأمير ورفع اللثام عن وجهه فبان من تحته وجه رجل بين الأربعين والخمسين من العمر ذي عينين واسعتين سوداوين وجبين عريض مرتفع وأنف أفتى وشاربين ولحية قد وخطها الشيب في غير أوانه فتأمله الأمير بشير فاذا هو ليس من الجنس من المصري الاصيل ولا العربي فابتدره الرجل بالكلام قائلاً انظر يا سيدي الى هذا الشعر فقد شاب قبل أوانه وما ذلك إلا من صنع قوم كنا لهم أشد الأنصار وقت العسر واليسر . فقاطعه الأمير قائلاً اجلس يا أخي واشرح لي قصتك بالاسهاب . فقال الرجل أتعدني أنك إذا سمعت في قصتي ما يثبت كوني مذنباً تترقب بي . قال نعم فقل ما بدا لك

فجلس الرجل يقص حكايته قال :

اني أيها الأمير من الامراء المماليك الذين سمعتم بمذبحتهم في قلعة القاهرة منذ نيف و ١١ سنة وقد كنت ممن دعي في ذلك اليوم المشئوم وقدر الله لي أن نجوت بنفسي لتأخري عن وقت الدعوة

فقاطعه الأمير بشير قائلاً « أملك أمين بك » قال نعم وقد مضى طي مدة بعد فراري من مغالب الموت وأنا في هذا البر أتوقع فرصة العود إلى القاهرة لمشاهدة أهلي فقد تركت هناك امرأتي وولدي وعلمت أن عزيز مصر أباح لجنده التزوج بنساء المماليك فلا أعلم ماذا كان من أمر عائلتي على اني قد أنفذت من يسأل عنها ولم يقدر أحد أن يوقفني على خبرها فمن قائل انها في مصر وقائل انها في غيرها من البلاد وقد أصبحت في قلق من جراء ذلك لأمرين . الأول اني لا أعلم إذا كانت تلك المسكينة لا تزال في قيد الحياة أو قد تزوج بها أحد أعدائي أو انها هلكت على أثر ولادتها لأنها كانت حاملاً ولا أعلم ماذا جرى لولدي . والامر الثاني إنني منقطع في هذا البر ولا أستطيع السكنى في المدن خوفاً من عيون الحكومة لأنها جعلت دماءنا هدرًا فلكل من لقينا ان يقتلنا ولا إثم عليه ولا حرج

فقال له الأمير طرب نفسك فاني سأقابل العزيز بعد يسير ولا بد من أن اذكرك

أمامه واطلب لك العفو منه فلا تخف باذن الله فان ذلك فرض علينا ولا بد من أن تنال مرامك

الفصل العشرون

الحملة الفرنسية

فقال البيك وليس هذا كله حديثي أيها الامير فان عندي قصة أشد تأثيراً في نفسي من كل شيء وهي سبب قلتي واضطرابي فأسألك الاصفاء اليها بعد أن تعذني عفواً عن غلطي

قال قل ولا تخف عني شيئاً

قال أعلم أيها الامير ان امرأتي هذه (قال ذلك وتهد) قد جلبت لها الشقاء بيدي فانها ليست من امثالي المالك وهي ليست من بلادي وإنما ساقتها يد الاقدار إلي بحكم الاتفاق وتنازع الجهالة
فقال الامير ومن تكون هي

قال يا سيدي هي . . . ثم خنته العبرات وسكت . فابتدره الامير وقال له قل لا تخف فوقف البيك ثم جثا بين قدي الامير وقبل ركبته قائلاً انها من انسابكم أيها الامير الجليل

فاضطرب الامير بشير ثم أوقف الرجل قائلاً وكيف يمكن ان يكون ذلك فقال انني لما كنت شاباً توجهت مرة مع عمي أحد امراء الالفية الذين تولوا مشيخة البلد زمناً طويلاً إلى بلاد الشامهرباً من الجيوش الفرنسية التي جاءت الى هذا القطر تحت قيادة نابليون بونابرت سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فساقتنا التقادير الى جبل لبنان ولم يعلم بنا أحد وكنت سعادتك أميراً على الجبل إذ ذاك ولكن الجزار والي عكا كان قد غضب عليك واتهمك بالاشتراك مع العسكر الفرنسي وكان مراده ان يولي أولاد الامير يوسف وبلغني انه ولام ولكنه لم يرسلهم لاستلام الامارة لاشتغاله بالفرنسوية وعزمهم على فتح سوريا

وقد كان في علمنا إذ ذاك أنكم من حزب الفرنسيين وبالتالي قد رسخ في نفوسنا حب الانتقام منكم غير اننا لم نزل ذلك سيلا فلبثنا نحادركم وتربص لكم ريب النون

واتفق اننا كما ذات يوم في إحدى قرى لبنان المجاورة لدير القمر وكان أهل البلاد في شغل شاعل لخلاف بين أحزابهم فعرمنا على العود الى مصر إذ عرفنا ان الفرنسيين كادوا يخفقون سعيًا بسبب المنشورات التي كان يرسلها الباب العالي ضدهم فوردت الرسائل الى عمي ان يرجع الى مصر لينضم الى رفقاءه المماليك . ففي ليلة تأهبنا للرحيل هيأنا الحیول وركبنا وفيما نحن خارج تلك القرية شاهدنا عن بعد شجكا بين الكروم وكنا قد أرسلنا أحد رجالنا ليأني لنا بشيء من العنب وسرنا في طريقنا فعاد الينا ومعه فتاة تبلغ من العمر ١٤ سنة كأنها من حور الحیان فناملتها وذكرت انني شاهدتها قبلا وقد مالت عواطفني اليها ولكني لم أكن أتجرأ على غاظبتها لعلمي أنها من بنات الامراء فلما جاء بها سألتها فقال لي انني رأيتها بين الكروم وقد أمسى عليها المساء ولما كانت قد رأني قبل هذه المرة سألتني ان اوصلها الى بيتها وهو قريب من هذا المكان فحُت بها اليك ثم همس في أذني أنها تصلح ان تكون زوجة لك

أما أنا فحدثني نفسي ان آخذها معي الى مصر وأتزوج بها ولما كتمتها في هذا الشأن لم تظهر معارضة ولعلها حانت منا غير انها كانت تبكي فقلت لها لا بأس عليك وصرت أطيّب خاطرها وانظر الى عمي لأرى اذا كان ييدي لي معارضة فرأيتة قد اسنحسن الفتاة وكان لسان حاله يقول أنها تصلح لك . فاغواني الشيطان وأغويت الفتاة وسرنا بها في ظلام ذلك الليل ونحن نجد المسير حتى خرجنا من حدود لبنان ووصلنا الى مدينة صيداء وهناك كتبت كتابي عليها وبعد بضعة أيام نبيت الفتاة أهلها وعلقت بها

فقاطعه الامير قائلا . هل هي الاميرة سلمى قال نعم أيها الامير فعلا وحه الامير الاصفرار رغم إرادته وقال نعم إني اذكر أمر ضياع هذه الفتاة وكنت

مد ابحت دم الجاني عليها ولكن مضى ما مضى فانت الآن من اصهارنا فمضى ان تكون تلك الاميرة في قيد الحياة

فبكي أمين بك وقال لا يعلم ذلك إلا الله . فترى أيها الأمير ان خداعي لتلك المسكينة لا يزال يتردد في خاطري وقد وبخني عليه ضميري لأنني لم أقدر على حفظها وذلك اني بعد ان مكثت في صيداء عدة أيام قيل لنا أن الفرنسيين حاءوا بجيوشهم لفتح سوريا ولكنهم لم يتجاوزوا عكاه بل رجعوا عنها بعد ان حاصروها خمسين يوماً فامتعت عليهم بمساعدة العمارة الاسكليزية التي كانت تساعدها من البحر

فقال لي عمي ها ان الفرنسيين قد عادوا الى مصر فلا نظن عودنا اليها ينفعنا شيئاً فالاحسن ان نعود الى حيث كنا فاشرت اليه أن رجوعنا الى لسان لم يعد ممكناً لأننا نذهب شهيدان فانتبه بهت برهة ففأخه أحد رجاله قائلاً لا أظن إلا أن أهل مصر الآن يقابلونهم بمثل ما قابلهم به أهل سوريا بعد مذبة يافا التي ذبح فيها الفرنسيون أربعة آلاف رجل من الارناؤط والمغاربه بعد أن سلخوا سلاحهم . أنظن أهل مصر يخذعون بقول الفرنسيون انهم مسلمون مثلهم فان المسلمين لا يشربون الخمر ولا يكشفون عورات نسائهم وقد علمت من أهل هذه المدينة اليوم ان جلالة السلطان بعث يحرض المصريين على إخراج الفرنسيين من بلادهم

وأما أنا يا سعادة الأمير فكنت ميلاً إلى البعد عن لبنان ما استطعت خوفاً من الوقوع في شر أعمالي ولذلك كنت أحرص عمي على العود الى مصر إلى أن قلت له وكيف كانت الحال فان سكنا قرب حدود مصر آمن لنا

وبعد مفاوضة طويلة قرر الفرار على التوجه الى حدود مصر ففرحت وفرحت الاميرة سلمى ولم يكن ديدني إلا الافتكار بها وبما يريغها ولذلك كسب في قلق دائم خوفاً من ان يتوطد قدم الفرنسيين في مصر ولا نعود اليها نحن فأكون قد جلبت الشقاء لنفسي ولها ومازلنا سائرين حتى نزلنا في مكان بالقرب من العريش فالقينا عصا التسيار وبعثنا جواسيسنا لاستطلاع أخبار الفرنسيين ومصر فعلمنا منهم ان بونابرت سافر من مصر سراً الى بلاده في أواخر سنة

١٧٩٩ م فاستبشرت بذلك وأسرت بتبشير سلمى . ثم أخبرني عمي أن المالك وأهل مصر جميعاً يستعدون لمحاربة الفرنسية . ولكنهم لم يقدرُوا على إخراجهم منها . فبقي الفرنسية أيها الأمير في مصر الى سنة ١٨٠١ إذ جاءت الحملة العثمانية وأخرجت الفرنسيين من مصر بمساعدة حملة انكليزية كما لا يخفى على سعادتك فابتهجنا وهمنا بالتوجه الى القاهرة . ثم علمنا ان التبرص في مكاننا أولى بنا لأن الانكليز قد تمهدوا أن يعيدوا مصر الى الباب العالي وقد سلموا ولايتها الى وال عثماني معه أوامر سرية بقتل جميع المالك وابدانهم فتأمل الآن بحالتي وهذه المسكنة لكفى لم أكن أذكر لها شيئاً من ذلك منعاً لاضطرابها

وليس من غرضي الآن أن أشرح لسعادتك تاريخ الحوادث المصرية اذ ذاك وانما المقصود اظهار ما يلحقني من التبعة اذا أغفلت أمر تلك المرأة فاقول بالاختصار أنه لما ظهر محمد علي باشا الوالي الحالي من بين الجنود العثمانيين الذين جاءوا مع الحملة التي اخرجت الفرنسيين وظهر منه أنه أهل للولاية ثم وقع بينه وبين الوالي المشار اليه نفور طلب الى امرائنا أن يساعدوه على مقاومة ذلك الوالي وان يكونوا معه يدًا واحدة فساعدناه جهدنا حتى اذا صارت الولاية اليه تنحى عنا ولم يسمح لنا بالاستيلاء على حقوقنا فاضطربنا الى مقاومته وكان عمي إذ ذاك في جهات الصعيد وكنت معه وكذلك عزيزتي سلمى

فأقول لك الحق ان عمي الأمير الالفى فاوض إذ ذاك خورشيد باشا الوالي الذي كان قبل محمد علي ليساعده على خلع محمد علي باشا وتعهد له انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام اليه ثم فاوض في ذلك أيضاً فنصل انكلترا وتعهد له ان يسلم القطر المصري الى انكلترا . فبعد أن كدنا ندرك الوطر ذهب مساعينا عبثاً فجاءت الاوامر بتثبيت محمد علي والفقو عن المالك قفلنا ان ما لا يدرك كله لا يترك جله . فزلنا من الصعيد وسكننا في جهات مختلفة أما أنا فكانت اقامتي في القاهرة وحسبت نفسي سعيداً لأنني صرت قادراً على ارضاء سلمى فاخذت لها قصرًا كبيراً وأتيت لها بالخدم والجواري وظننت الدهر قد صفا لنا بعد ان تنازلنا عن كل حقوقنا بالحكم وما علمنا بما أعده لنا الزمان فان محمد علي باشا دعانا

يوما دعوة رسمية الى سرايه في القلعة احتفالا باخراج ابنه طوسون لمحاربة الوهايين كما لا يخفى على سعادتكم فحضر الجميع إلا انا فاني أردت الخروج من البيت بعد ان امرت الخادم ان يهيئ لي الجواد فنادتني سلمى وهي حامل وقال رويدك لا تستعجل فاني أشعر باضطراب في حسمي هذا النهار لأنني حملت أمس حملاً مزعجاً . فقلت لها ياعزيزتي ان الاحلام أوهام لا يعبأ بها ولكن لم يمكنني غافلتها فجلست بجانبها وتجادبنا أطراف الحديث مدة وأنا أتأمل بمعاني وجهها ولطفها فانتهت وقد كاد يدركني الوقت فركبت جوادي وقصدت القلعة فلما وصلت باب العزب من ابوابها رأيت الموكب قادماً نحو ذلك الباب يريد الخروج منه فقلت الا صوب ان أتربص خارجاً ريثما يخرج الموكب فاراقه فوقفت بجوادي على تل أمام الباب المذكور ثم رأيتهم أغلقوا الباب بغته وعقب اغلاقه اطلاق الرصاص داخل القلعة فعلمت انها مكيدة لقتلنا وحملي حب النجاة على الفرار في الصحراء بدلا من السير الى البيت لأنجي جيتي فوثب جوادي من فوق ذلك التل فمات فسرت ماشياً حتى خرجت من ضواحي القاهرة فتربصت لأعلم النتيجة ثم علمت ان دم المالك أصبح هدراً حينما كانوا فاوغلت في هذا البر حتى وصلت الى هنا فالتجأت الى امير احدى القبائل فهو يرسل لي كل ما احتاج اليه من الطعام واللباس والخدم . وهأنا كما تراني قد وخطني الشيب في مستقبل العمر فبهت الامر لهذه القصة الغريبة ومن الغريب أنه مع فراسته المشهورة لم ينتبه لعلاقة امين بك بغريب أو لعله اتبه وتجاهل لغرض في نفسه على أنه قال لأمين بك طب نفساً وقر عيناً فلا بد لي من ان أفاوض العزيز في ذلك عند ما أعود الى القاهرة وأرجو أن استطيع مكافأتك على حسن صنيعك فطلب اليه أمين بك ان يحفظ كل ذلك في سره فوعده بذلك

الفصل الحادي والعشرون

ابرهيم باشا

ثم خرجا من الحيمة فاذا برسول قادم من بني سوييف ويده كتاب للامير ففضه فاذا هو بنيء بقرب مرور ابرهيم باشا بالفشن متوجها الى الفرطوش في جهات الصعيد فالتفت الامير الى أمين بك قائلا هذه فرصة لا يجب ضياعها فان ابرهيم باشا ابن عزيز مصر سيمر بنا قريباً ولا ريب انه ينزل ليبيت عندنا ليلة أو يقضي بيننا نهراً وأنت تعلم انه صاحب منزلة كبيرة عند والده وقد سبق لي أني حادثته فوجدته حسن الطوية محباً للعدل فاذا اغتنمنا هذه الفرصة وقصصنا عليه القصة ساعدنا ولا ريب مساعدة كلية فالاصوب على ما أظن ان تركب معي الى الفشن فتزينا بزي واحد من رجالي فلا يعرفك احد واذا لم يعرف العزيز عنك أو انك لم تجد امرأتك وأولادك وكرهت الاقامة في هذه البلاد فانك تسير معي الى لبنان وتكون من اخصائي لأنك أوليتني جيلاً لا أنساه مدى الدهر

فانشرح صدر البيك لهذه العبارات اللطيفة وقال سمعاً وطاعة ثم أمر من في الخيام ان يقتلعوها وكتب كتاباً دفعه الى واحد منهم وأمره أن يوصله الى امير القبيلة التي عضدته مثنياً عليه واسر الى ذلك الرسول بما جرى وطلب اليه ان يبلغ ذلك الى اميره سرّاً

وفي عصر ذلك اليوم ركب القوم وسار الامير بشير في طليعتهم والى جانبه الامير امين وامين بك وكان هذا قد طلب من الامير بشير أن يتأديه باسم سليمان خوفاً من افشاء الامر . فصار كل من معه يعرفونه بهذا الاسم . فبعد ان وصل الجميع الى الفشن سأل سليمان عن غريب وجراحه فقيل له انه في خير وسلامة فذهب اليه وقبله وقبل الغلام يده ولم يكن غريب ولا أحد من اولاد الامير يعلم شيئاً عن امين بك سوى انه رجل له فضل عليهم وقد جاء به الامير

بشير ليكافئه بالتوسط عند عزيز مصر لعفو عن ذنب كان قد اقترفه وان
اسمه سليمان

ثم بعث الكاشف الى الامير يطلب اليه الحضور بمن معه الى بني سويف
بامر العزيز فزلوا هناك وبعد يسير وردت الاخبار بقرب وصول ابراهيم
باشا فأخذ المتسلم يهيء معدات الاستقبال والترحيب فناء بمن عنده من الحمد
ورتبهم صفوفًا عند ضفة النيل باحسن ما لديهم من الملابس ونزل أيضًا الامير
بشير ومن معه لاستقباله . أما امين بك فبقي في البيت متكرراً بثياب أحد
رجال الامير

ففي ذات صباح وصل ابراهيم باشا بالذهبية على الليل ولما طلع الى البر تلقاه
الكاشف وقبل يده ثم حول انتباهه الى الامير بشير وتصاحفا وسارا معاً الى
المنزل حيث أعد لها ما يلزم

وكان ابراهيم باشا ربعة في الرجال مستوى القامة منتصبها وكان عمره
حمساً وثلاثين سنة دقيق الأنف أشهل العينين حادها مع ارتفاع موقتيهما
مستطيل الوجه وبوجهه أثر الجدري أشقر الشعر وعلى رأسه الطربوش
العسكري الطويل وقد لبس الحلة الرسمية وعلى صدرها مستعرضات من حداث
القصب وكذلك اكمامها

وكان وجهه أقرب الى العبوسة منه إلى الطلاقة والدعه ولذلك لم تكن
الرعية تحبه كأيّيه وكان سريع الغضب حاد الطبع لكنه سلم الية ليس في
قلبه مكر ولا خداع البتة

فلما وصلوا الى المنزل دخل الامير وأولاده والباشا غرفة الاستقبال المروشة
بالسجاد والوسائد والمقاعد فجلسوا . وكان غريب في غرفته وبجانبه سليمان
يلاطفه ويعتني به . وقد فعل ذلك تسترًا من وجه ابراهيم باشا

الفصل الثاني والعشرون

نظرة في مذبحة الممالك

أما الحديث بين ابرهيم باشا والامير بشير فكان كما يأتي :

ابرهيم باشا . كيف وجدت مصر أيها الامير

الامير . في غاية ما يكون من الحصب وقد وجدت ان تربتها تختلف عن تربة بلادنا كثيرا نعم اني قدمت القطر المصري مرة قبل هذه غير اني لم أتجاوز الاسكندرية حينئذ ولم أر شيئا من خصب هذا البر السعيد وقد علمت أيضا ان مرجع الفضل الى والدكم في حفظ الامن وسعادة الامة

الباشا . لو تعلم أيها الامير الحالة التي كان عليها هذا القطر قبل أوائل هذا القرن أي في أيام الامراء الممالك لكنت تتعجب من التغير العجيب الذي طرأ عليه فقد كانت الارواح والاموال إذ ذاك لمن كان أقوى بطشا ولا بد أنك كنت تطلع على اخبارهم في أواخر القرن الماضي فأين تلك الحالة من هذه الآن الامير . هذا أمر لا يختلف فيه اثنان فقد يقال ان سيادة والدكم هو الذي أوجد هذا القطر من العدم غير أنه لا ينكر قرب الشعب المصري من الطاعة والاذعان

الباشا . نعم ان هذا لا ينكر غير ان الممالك واحزابهم كانوا مصدر ذلك

الفساد ولذلك ترى اننا بعد أن أهلكناهم سكنت البلاد وساد الامن

الامير . هل يأذن لي حضرة الوزير أن أذكر له بعض الملاحظات في شأن

هؤلاء الممالك ومهلكهم

الباشا . قل

الامير . يقال ان هؤلاء الممالك كانوا في أيام تسلطهم يعيشون فسادا في

البلاد غير ان ذلك الحكم لا يطلق عليهم بالكلية لأنهم كانوا في القرن السابع والثامن والتاسع وأوائل العاشر سلاطين هذا القطر وقد تركوا من الآثار

ملا تنكر عظمته ثم بعد تغلب السلطان سليم الغازي العثماني ودخول مصر في حوزة العثمانيين انحلت أيديهم وبعد أن كانت السلطة في قبضتهم أصبحوا ثانويين في الحكم كما تعلم

ولا أظنك تخالفني في ان الباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العلية ولاية على مصر منذ دخول هذه البلاد في حوزتها كانوا سبباً لتمررد الممالك واستبدادهم لأنهم كانوا لا يرون هؤلاء الباشوات إلا أشباحاً بلا أرواح حتى آل الامر بعلي بك الكبير انه استقل بحكم مصر عن الباب العالي وفتح سوريا في أواسط القرن الماضي ولو لم يخنه صهره محمد بك أبو الذهب لبقيت مصر وسوريا مستقلةين ولا أعلم ان هذا الرجل استعمل في كل أعماله ما يقال أنه خيانة

ثم لما جاء الفرنسيون إلى هنا نعموا على الممالك وبالغوا في طعنهم وثلبهم ولم يكن ذلك إلا إثارة لعواطف المصريين ليساعدوم عليهم رغبة في الاستيلاء على هذه البلاد

وزد على ذلك فاني أراهم بعد تولي جناب والدكم قد أذعنوا له وخضعوا لأوامره بعد أن ساعدوه على نيل أمنيته وورود العفو عنهم من حلاة السلطان محمود حتى علمت أن تمكن عرى الألفة والولاء حملهم على تبادل الريارات العائلية بين زعيمهم شاهين بك وحناب والدكم . أما كان مستحسنًا الوقوف عند هذا الحد والاعضاء عن مقتلهم بالطريقة التي علمناها

الباشا . أعلم أيها الأمير أن هذه الملاحظة قد قدمها كثيرون من كبار القوم الذين ذاكروا والدي في هذا الشأن وقد يتبادر إلى الذهن أنهم هم المصيون غير ان للسألة وجهاً آخر يستوجب لوالدي العذر وهو ان هؤلاء القوم قد عرفوا منذ كانوا في منصب السلطنة في مصر انهم ليسوا من أصحاب العصبية بمعنى أنهم قلما كانوا يتوارثون الملك بل كانت الحكومة عندهم تصل إلى أشدم بأساً وأكثرهم احزاباً وان الملك لم يكن يصل اليهم إلا خلصة واغتصاباً . ثم لما صارت البلاد في حوزة بني عثمان لم يبقهم السلطان سليم في منصب الأمراء إلا رغبة منه في التخلص من شرهم ولكي يكونوا عيوناً على عيبرم من اعضاء الحكومة

وقد علمت ما كان من تطاولهم على الباشوات العثمانيين الذين كانوا يتولون هذا القطر حتى أن الحكومة العثمانية عهدت الى ولايتها هنا بعد الحملة الفرنسية أن يقتلهم وكانت تلك الاوامر سرية غير أن الباشوات لم يتمكنوا من ذلك فلما اعتلى والذي منصب الولاية كانوا بحسب الظاهر قد اذعنوا مقابلة ما نالوا من العفو السلطاني ولكنهم مابرحوا سبباً لقلقه فلما عهد الى والذي سنة ١٨١١ م في اخضاع الوهايين الذين ثاروا في شبه جزيرة العرب نمي اليه انهم سيغتنمون فرصة غياب الجند هناك ليل مآربهم فسبقهم هو وأهلهم . ولا بد انه فعل ذلك بايعاز من الباب العالي واني أؤكد لك ايها الامير انه لو لم ينلهم ما نالهم لكانوا شر عقبة في سبيل نجاح البلاد وسعادتها

الامير . أما اذا كان اهلاكم قد جرى عملاً باوامر سلطانية فجناب والدكم براء من تبعته ولم يكن قد فعل الا واجبه . وعند ذلك تخطر لي رواية سمعتها عن والدكم حدثت يوم مقتل هؤلاء المالك وذلك انه لما خرج موكبهم من سرايه بالقلعة كان جالساً على ممشى يشرف على مكان المذبحة يدخل بالنارجيلة ولم يكن عنده الا صديقه محمد بك لازغلو وصالح قوش يزعم الانكشاريه فلما بدأت المذبحة لم يعد يستطيع البقاء على مشهد منها فدخل ديوانه بعد أن اخرج من كان فيه وبقي فيه منفرداً وقد استولى عليه السكوت والرغبة وتغيرت هيئاته لشدة تأثره واضطراب فؤاده ولم يشأ أن يشاهد ذلك المنظر المائل وربما كان ذلك من الأدلة على عدم ارتكابه ثقل التبعة اختياراً والله أعلم

والآن لدي أمر سأعرضه على جنابكم وله علاقة بجنابنا وهو أن أحدهؤلاء المالك نجما من تلك المذبحة اتفاقاً وهذا الرجل قد أولاني جميلاً بانقاذ أحد أولادي من غالب الموت ولم أر لي وسيلة اكافئه بها الا التماس العفو له من جناب والدكم فهل تظن ذلك ممكناً

الباشا . ان هذا اليك قد عرفنا بنجاته وانه ملتجئ الى بعض القبائل البدوية في هذه الجهات وقد كان في عزم والذي ان يهلكه حالما يعلم بمكانه على انه لم يكن مصرأ هذا الاصرار على غيره من المالك ولكنني أعلم انكم

مكرمون لديه فلا شك في انه يجيب طلبكم ومع ذلك فاني حالما أعود من هذا السفر أعرض هذا الامر عليه

الأمير . أشكركم شكراً عظيماً ايها الوزير واني ادا لم استطع خدمة هذا الرجل في شيء فلا يستريح ضميري
الباشا . طب نفسك فيكون ما تريد ان شاء الله

وبعد ختام الحديث في هذا الموضوع انتقلنا الى البحث في مواضيع اخرى فسأله الأمير عن حرب الوهابيين وما كان من امرها فأفاض الباشا في شرح ذلك ثم حضر الطعام فتناولوه وقضوا ذلك اليوم وفي اليوم التالي سافر ابراهيم باشا الى الجهة التي كان يقصدها وعاد بعد يسير الى القاهرة

الفصل الثالث والعشرون

محمد علي باشا

وأقام الأمير بشير في جهات بني سويف بضعة اشهر حتى ورد عليه كتاب العزيز بالقدوم الى مصر لانه قد جاء من الاسكندرية وكان عريب قد شفى تماماً وكان سليمان قد علم بما دار بين الأمير بشير و ابراهيم باشا في شأنه واطمأن خاطره فلما وصلوا القاهرة نزلوا في قصر بضواحها كان قد اعده محمد علي لسكى الأمير ومن معه ثم أرسل اليه حمسة من جياد الخيل وطلب اليه أن يأتي الى سرايه في القلعة

فنهض الأمير وسار معه ولداه وغريب للسلام على عزيز مصر فدخلوا القلعة حتى جاءوا السراى فوقف لهم الخفراء اجلالاً فدخلوا غرفة الاستقبال المفروشة ارضها بالسجاد والبسط فادا بمحمد علي باشا حالس على وسادة وفي يده الواحدة سبحة والاخرى مذبة فوقف محمد علي لاستقبال الأمير ورحب به كثيراً واجلسه الى جانبه ورحب باولاده بعد ان عرفه الأمير بهم . وكان غريب اكثر اندهالاً بتلك المقابلة الرسمية من الجميع لانه لم يسبق له مثلها

فنظر الى محمد علي باشا واذا هو ربعة في الرجال عالي الجبهة واسعها بارز
الحاجبين اسود العينين صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملامح مع هيئة
ووداعة ولباسه في غاية البساطة وعلى رأسه الطربوش الجهادي

فبعد التحية والسلام سأل محمد علي الامير بشيراً عن أولاده والتفت الى
غريب ودعاه اليه وأجلسه بجانبه ورأى أثر الجرح في رأسه فقال للامير بشير
ما هذا الاثر أيها الامير فقال الامير بشير يا سعادة الوزير هذا أثر ضربة كادت
تقضي عليه في صحراء مصر

فقال العزيز وكيف ذلك . فقص عليه حكايته الى أن قال ولولا أن أحد
الرجال الفضلاء أنقذه من غالب الموت لما كنت رأيته فكم يجب أن أكون
مديوناً لهذا الرجل

فقال العزيز بالحقيقة يستحق كل مكافأة

فقال الامير عليك مكافأته

فقال العزيز وكيف ذلك

قال هل يسمح لي جناب العزيز أن أحاطبه بامرء سرّاً . قال نعم فنهض
الامير الى جانب العزيز ففهم الحاضرون انه يجب أن يخرجوا ويتنحوا جانباً
وعند ذلك قص الامير بشير القصة حتى أتى على آخرها فقال وافضل ما يمكننا
مكافأته به انما هو العفو من حسابكم عنه

فالتفت العزيز الى الامير قائلاً قد ذكره لي ابني ابراهيم واكراما لحاطرك قد
عفوت عنه وانما أرجو أن لا يقيم في هذه البلاد اذ لا يمكنني اظهار ذلك جهاراً
خوفاً من الملام لانني كنت ناقماً عليه بنوع خاص لانصال جبل قرياء بالامير
الالفي الذي كان ساعياً في اخراج مصر من يدي وتسليمها الى الانكليز وانما
مدحك اخلاقه واقرارك بمعروفه قد حملاني على العفو عنه

فقال الامير سيكون بمعيتي الى أن أبرح هذا القطر فأخذه معي ولكن
لا بد له من التفتيش عن منزله لعله يلاقي عائلته

فقال العزيز قد اجزنا له ذلك ثم قال وأود ان اختلي بك برهة يسيرة
للتكلم مع سعادتك في شؤون خطيرة فاذا شئت فتعال مع حضرات الانجال الى

سراى شبرا حيث يمكننا المفاوضة ملياً وليس من يراحمنا فان هذه السراى هـا
بمثابة محل الشغل وهناك مكان الاستراحة

خرج الامير بعد وداع العزيز مسروراً لتسكنه من نيل العفو عن سليمان
فساروا جميعاً الى المنزل وبعث الامير الى سليمان فحضر فاجلى به وأخبره بأمر
العفو وانه صرح له بالتفتيش عن بيته برفقة بعض الضابطه وسار سليمان للحال
مع بعض الصابطة وبعض رجال الامير للفتيش عن امرأته ثم جاء حما البحري
يطلب الأمير وأولاده للتوجه الى قصر شبرا حسب أمر العزيز فاحب عريب
الامتناع فألح عليه الأمير . فسار وفيما هم في الطريق على خيولهم تذكر عريب
أمر تلك المرأة التي وعدوها بالخلص من زوجها فسأل والده عنها فسأل
الأمير حما البحري لانه كان قد كلمه بذلك فقال قد طلقناها من ذلك الخشاش
ورتب لها العزيز راتباً شهرياً مرضاة لك . فسر عريب لذلك سروراً عظيماً

فلما وصلوا قصر شبرا وجدوه قصرًا بديعاً تحديق به حديقة فيها اطياف
الاثمار والازهار والرياحين فاستقبلهم الامير ورحب بهم وادخلهم عروسه
الاستقبال وهي مشرفة على النيل واجلسهم بجانبه وقدم للامير كرسيًا واحلسه
بجانب جلسه وأخذ يسأله عن كل ما يتعلق بولايته في لسان فادرك أولاد
الامير أن وجودهم في تلك القاعة لاداعي له فخرجوا الى الحديقة وحملوا يطوفون
فيها ويتمتعون بمشاهدة أثمارها واثمارها ويتجادثون في الفرق بين يوم ضياع
غريب وهذا اليوم وما يمكن أن يكون من أمر سليمان والعفو عنه . وفي تلك
الليلة تناولوا الطعام في بيت العزيز وقد أحسن ضيافتهم ولما خرجوا من عنده
ودعهم والتفت الى الأمير قائلاً لابد من مقابلة اخرى سرية بيني وبينك لا يخضرها
احد فقال سمعاً وطاعة

وبعد أيام استدعى الامير بشير الى القلعة فعلم ان تلك هي المناقبة
السرية فلم يأخذ معه أحداً من أولاده بل تركهم في المنزل الذي كانوا قد نزلوا
فيه في جزيرة الروضة . فلما جاء الى محمد علي انفرده به وكلمه ملياً عن مقاصده
في بلاد الشام فوعده الامير بالمساعدة ثم أخبره انه عمّا قليل تصدر الاوامر

الشاهانية بالعفو عن عبد الله ناشا حاكم عكا ورجوع الولاية اليه
ثم قال الامير ومما يزيد ثقتي بنجاح مساعيتكم في توسيع دائرة بلادكم اعتناؤكم
في تدريب الجند على النظام الجديد المأخوذ عن نظام الجيش الفرنسي فان
ذلك من أول دواعي فوزكم اذ أن أهالي الشام وغيرهم من أهالي المشرق
لا يعرفون هذا النظام ولذلك لا يتأتى لهم الوقوف أمام جنودكم

فتبسم محمد علي ثم قال نعم ان ذلك صحيح ولكن لا يخفى عليك اني قاسيت
في سبيل ذلك مشقات عظيمة ولا أزال اقلبي أعظم منها لان عساكر الارناؤط
والاتراك قد عظم عليهم هذا التغيير واعتبروه بدعة مخالفة للشرع الشريف
فנקموا علي حتى كادوا يشقون عصا الطاعة فجئتهم من حيث أرادوا ودبرت لهم
وسيلة تريخني منهم ولا تغلوا من الفائدة لي . وذلك اني أرسلتهم تحت قيادة
ولدي اسماعيل الى الاصقاع السودانية ليفتحوها فاذا استطاعوا فغيراً وان
هلكوا فاكون قد نجحت من مقاومتهم وقد عدت بعد ذهابهم الى اتمام مقاصدي
في تدريب الجند فاخذت من أهالي البلاد من يصلح للجندية وجعلت لهم قواداً
من الافرنج يدرّبونهم على الاعمال الحربية فان هذا الشعب قريب من الطاعة
والتدريب

فاجبت الامير هذه الحكمة وقال في نفسه ان مثل هذا الرجل لا غرو اذا
دانت له الاقطار المصرية وغيرها . وعاد الامير من عند العزيز مسروراً . وفيما
هو في الطريق تذكر سليمان وانه قد مضى عليه ثلاثة أيام ولم يرجع من التفتيش
عن امرائه وكان قد ألح عليه أن يأتي بها اليه ليراها

فلما وصل الى السراي في المنيل وجد سليمان قد جاء ولكنه كئيب البال
مضطرب البال فسأله عما فعل فقال يا سيدي قد فتشت عنها في المدينة فلم أقف
لها على خبر ولذلك تراني قلقاً لا أدري ماذا أفعل وكأن الدنيا قد اظلمت
في عيني

فاخذ الامير يخفف عنه ويعبريه فقال يا سيدي ليس لي تعزية إلا بمعرفة
مكان تلك المرأة التي كنت سبباً لشقاوتها فقد قيل لي انها لم تعد تظهر من يوم
المذبحة لاهي ولا ولدها فلم أعد أستطيع الاقامة في هذه الديار بل صرت أفضل

الموت على الحياة فاني لم اكن راضيا في العفو إلا طمعا ببقائي بها وإلا فلا رغبة لي في الحياة فياحبذا ذلك النني ولا هذا العفو

فقال له الامير لا تستعظم الامر الى هذا الحد وإن كنت لا تستحسن البقاء هنا فمرحبا بك لاتنا نأخذك معنا الى بلادنا ونملك على الرحب والسعة

فتنهذ ثم قال لا لا ياسيدي فاني لا أستطيع المسير الى تلك الانحاء وحدي وقد خرجت منها بملك كريم قد سلبتني يد الاقدار فلا أعلم الى أين اذهب ثم تقدم الى الامير وم بتقبيل يديه فمنعه فقال اني لا انسى حسن صنيعك ايها الامير الحليل وقبل وجنات أولاد الامير ثم قبل غريبا قبله من حرارة قلبه لما رأى بينه وبين ابنه سليم من المشابهة إذ لا بد أن يكون القارىء قد عرف أن هذا الرجل هو زوج تلك المرأة والدة غريب أما هو فلم يعرف ولده لانه لم يكن قد ولد يوم فارقه ولا الولد يعرف أن له ابا غير الأمير بشير ولا الأمير بشير يعرف من أين أنت جميلة

ولعل حكاية أمين بك قد ذكرته بسلمى وربما مر بذهنه الشك في أن تكون هي جميلة بعينها على أن سابق اعتقاده بانها من أهل صيدا واستبعاده بحجة مثل هذه المرأة حاملا وفرارها الى لبنان بغير أن تخاف انكشاف أمرها كل ذلك قد رفع الشك من ذهنه

فلما قبل أمين بك يده وأراد الخروج قال له ما معنى هذا التقبيل يا أمين بك قال هاأنا خارج وسأستخير الله في ما أفعل وأخشى أن لا يقدر لي الرجوع اليكم ولعل الله يجمعنا مرة أخرى

قال ذلك وخرج ولم يلتفت وراءه فأخذ الامير يفكر في أمره وقد ساءه خروجه على هذه الطريقة ولكنه عذره لتنهيج أفكاره وتأثر عواطفه وظن انه ربما يكون خطر له أن امرأته قد ذهبت الى مكان يعرفه فذهب للتفتيش عنها

أما اولاد الأمير وغريب فلم يفهموا معنى هذا الوداع لانهم لم يكونوا عالمين بالأمر

وبعد بضعة أيام تلقى الأمير بشير كتباً من لبنان بينها كتاب من جميلة

تقول فيه انه لم يعد لها صبر على فراق غريب وتلتبس من الامير أن يرسله اليها فسأل غريباً عن رأيه فقال يا أباي نعم اني أرغب في الذهاب الى بيت الدين لمشاهدة والدتي فارسل معه بعضاً من رجاله يوصلونه الى لبنان فودعهم وقبل يدي الامير فاوصى الامير الرجال أن يعتنوا به فودعوه وتوجهوا قاصدين لبنان أما ما كان من أمر أمين بك فانه بعد خروجه من عند الامير بشبر سار توطاً الى سراي محمد علي باشا وطلب مقابلته فادن له فدخل عليه وقبل الارض بين يديه وشكره على عفوه عنه ثم قال له أعلم ايها العزيز انه لم يعد يطيب لي المقام في هذه الديار ولا التوجه الى بلاد الشام وهأنا بين يديك وهل لك أن تقبلني من بعض خدمك على شرط أن ترسلني الى جهة يكثر فيها الموت لاني صرت أفضل الموت على حياتي بعد فقد زوجتي وولدي وكنت قد عولت على الانتحار فحدثني نفسي أن ذلك ليس من شيم الرجال فزت لعل العزيز يرسلني في حرب فأحارب حتى تأتي ساعتي فأموت في ساحة القتال فذلك خير من أن أقتل نفسي بيدي

فتأثر محمد علي من هذا الكلام واجتهد في أن يثنيه عن عزمه فلم ينجح فقال اذا كان لا بد لك من ذلك أرسلك الى جهات السودان حيث ولدي اسماعيل يحارب السودانين ويفتح بلادهم وستسير اليه فرقة من الارناؤوط والدلاة في هذا النهار ممدداً . فقال أمين بك ذلك جل مرادى وانما أسألك ان تدعوني باسم سليمان بدلا من اسمي الحقيقي اخفاء لحقيقة أمري فقال محمد علي حسناً وأمر ان يلحق بالفرقة المسافرة كضابط من ضباطها فسارت الحملة في ذلك النهار وسار سليمان معها بعد أن ودع العزيز فدعا له بالعودة سالماً ولم يعلم الامير بشير ولا أحد ممن معه بذلك

الفصل الرابع والعشرون

كشف السر

أما ما كان من أمر جميلة فأنها بعد ان فارقتها غريب لم يعد بها لها طعام ولا رقاد وكانت دائماً تفكر به وتنتظر ورود رسائله لقرأها وتقبلها ولم يكن لها معزياً إلا سعيد فأنها كانت تحادثه وتظهر له مكنونات سرها وهو يعزبها ويصبرها الى أن ورد لها كتاب غريب يصف لها فيه زيارته للقاهرة وحكاية مهلك المالك فلما وصلت الى الفقرة التي يقول فيها أن احدم تأخر عن وقت الدعوة ونجا من المذبحة خفق قلبها وبعثت الى سعيد ان يحضر اليها فانطلعت على كتاب غريب وما فيه فاطرق هنية ثم قال ياسيدي عسى أن يكون ذلك الرحل سيدي البيك فبكت جميلة قائلة لا أعلم يا سعيد لماذا حقق قلبي عند قراءتي هذه الفقرة ولكن كيف العمل لعلم الحقيقة

فقال لها سعيد أرى ياسيدي أن نكتب الى سعادة الامير بحقيقة الحال لعله يساعدنا في ذلك ويفتش معنا عن المفقود

فقال أوام يا سعيد لا يسعني ذلك بعد أن بالغت في السكتان عنه فقال سعيد وما المانع من أن نخبره عن حقيقة حالنا الآن لا أظن الا انه يعذرنا ويساعدنا

فتنهت جميلة ونظرت الى سعيد وقد حققها العبرات ثم قلت اني اخشى أمراً آخر

فقال ومادا عسى أن يكون ذلك الأمر وهل هناك أمر لا أعرفه انا

فقال نعم يا سعيد هناك سر لم أطلعك عليه بعد

فمظر اليها مدهوشاً وقال وماهو ذلك السر

قالت هو خطأ وقعت فيه منذ صباي ولا أقوله لك ما لم تتعهد لي بكماله كجاري عادتك معي في حفظ الاسرار . فقال يجب أن تثقي بي يا سيدتي بعد

الذي رأيته من صادق خدمتي لك واني اتعهد لك بما تريد
فقلت له اعلم ياسعيد اني لست من نسل المالك كما تظن وانما انا من بنات
عائلة بني شهاب

فقال سعيد مدهوشاً أمن عائلة سعادة الامير بشير
قالت نعم ألا تذكر كيف كنت أود الهجاء الى لبنان بنوع خاص على أثر
خروجنا من مصر
فقال وكيف صرت زوجة لسيدي

قالت اعلم اني ابنة الأمير ... من قرية تقرب من هنا وكان والدي رحمه
الله (لاني سمعت انه توفي) يريد أن يزوجني بواحد من أولاد عمي لم أكن
أحبه بل كنت أكره معاشرته أما والدي فكان مصرعاً على ذلك بدعوى ان
سرتي قطعت على أن اكون له ويكون لي فانا مخطوبة له من يوم ولادتي وقد
سبق منه الوعد بذلك لوالده ولا يرجع بكلامه فتقدمت اليه مراراً ان يشفق
علي وانا عند ذلك لم اتجاوز الثالثة عشرة من العمر فابي إلا ما أراد فسكت
مضرة الشرف في قلبي

وكان سيدك قد جاء الى هذه الجهات في جملة من أقاربه الأمراء المالك
فراراً من وجه الفرنسيين الذين دخلوا مصر في تلك الايام وكان شاباً لطيفاً
فنظرته في الكروم وأحبته وانما لم يخطر في بالي أمر الزواج به لبعد العلاقة
بيننا ولاني لم أرب تربية تتيح لي ذلك

ففي ذات يوم فاتحني أبي بامر الزواج بابن عمي فلم أحبه ففهم اني راضية
وبعد قليل خرج من البيت فجلست افكر في أمري حتى ضجرت فخرجت الى
الكروم ومكثت هناك مرتبة حتى غربت الشمس فشاهدت جماعة على
خيول كأنهم مسافرون فلدحت انهم سيدك وجماعته فوقفت مذهولة وقد كدت
أمل الحياة فاقرب الي رجل منهم يسأل عن الناطور ليشتري عباً وكنت قد
شاهدته مراراً قبل ذلك الوقت فلم أخف منه فلما عرفني قال لي ما بالك هنا
أيها السيدة فقلت اني اتمشى بين الكروم فقال تعالى معي لاوصلك الى بيتك
لان الشمس قد غابت وقد يخشى عليك فسرت معه وانا لا أعلم ماذا أفعل فاذا

به قد أخذني الى جماعته وانا لا أدري ثم رأيتهم يهيمون فيما بينهم وبعد قليل تقدم الي سيدك وسألني عما اذا كنت أريد الزواج به فلم أجبه لان الحياء علب علي فضلا عن اني لم اكن افهم معنى الزواج غير انه اصر على ارضائي وانا لشدة غيظي من والدي ورغبتني في الفرار من الحفرة التي حفرها لي سلمت بما أرادوه وانا آسفة على ذلك ولم يكن جوابي إلا الصمت فاخذوني معهم في ظلام ذلك الليل وبقيت عدة ايام لم تحبف دموعي مطلقاً ومارلنا حتى وصلنا صيدا وهناك كتب كتابه علي شرعياً ولما عاد الى مصر أخذني معه ومازلت كما علمت ولذلك تراني أود اخفاء امري لئلا اقع في بلاء اعظم لان ابي كان قد اباح دمي وكذلك الأمير بشير لانه كان حاكماً على لبنان إذ ذاك ايضاً

فدهش سعيد لهذه الحكاية التي لم تكن تخطر له في بال وقال لجميلة فاداً حضرتك من اقرباء هذا الأمير وسبحان جامع المتفرقين والآن ماذا نعمل قالت ما لنا إلا الاعتصام بالصبر الجميل وانا واثقة ان سيدك اذا كان لا يزال حياً لا بد من ان نجتمع به بادن الله والله مع الصابرين واما الآن فانا مشغولة البال وقلقة على غريب

فاخذ سعيد يطيب خاطرها ويخفف قلقها حتى صبرت ولكنها نهضت ذات يوم من النوم مذعورة وبعثت الى سعيد وقالت له انظر يا سعيد قد نهضت في هذا الصباح من النوم منزوعة على اثر حلم مزعج هالني امره ولذلك تراني قلقه على غريب ولم يعد لي صبر على فراقه فاكتب الى الأمير بالسياسة عني تطلب اليه ان يبعث الي غريباً إذ لا تعزية لي سواء وعسى ان الله لا يحرمني منه قالت ذلك وتنهدت

فاخذ سعيد ورقة وكتب الى الأمير بشير كما امرت وارسل الكتاب مع الساعي الذي اقيم لا يصال البريد اليه كجاري العادة

وبعد ذلك بيضعة اسابيع جاءت البشائر الى بيت الدين بقرب وصول غريب فخرجت الرجال لملاقاته وفي مقدمتهم سعيد واول ما التقوا به اطلقوا له البارود تأهيلاً به اما سعيد فتناوله وقبله وجاء به الى والدته وكانت تنتظره عند باب الدار فاسرعت اليه وقبلته وشكرت الله على سلامته ودخلت به حجرتها

وبعد أن استراح هنيهة وغسل وتبدل جلست بجانبه وجاء جميع أهل السراي للسلام عليه فكان يسلم عليهم ويحادثهم ويلطفهم وم معجبون به وبلطفه أما والدته فرأت في جبينه أثر جرح فتقدمت اليه وسألته عن أصل ذلك الجرح فقال لها لهذا الجرح قصة سأتلوها عليك في هذا المساء فلما كان المساء بعد تناول الطعام دخلت به حجرتها ولم يكن هناك احد غيرها فجعلت تتأمل فيه بتلهف لا مزيد عليه وهي لم تصدق انها تراه الى أن تذكرت امر قصته فسألته ان يقص عليها الحكاية فأخذ غريب يشرح حكاية الميدان وكيف تاه في الصحراء وعن مقابلة أولئك اللصوص له الى ان وصل الى حكاية ذلك المتلثم وكيف التقى بنفسه الى الخطر لا يقاده . كل ذلك وهي صامئة تتأمل باشارات غريب وحديثه وقلبها يخفق لما كاد يحدق بالغلام من الخطر ولم تقدر أن تتألك عن البكاء من أجل ذلك وقد مالت كل الميل الى معرفة ذلك الرجل فسألته عما اذا كان قد عرفه . فقال :

لا يا والدتي فانه لم يشأ ان يخبرنا بحكاينه وانما لما عرف والدي بما فعله معنا زاره الى محل اقامته وقد اخبره بقصته وقد جاء معه الى منزلنا وسار معنا إلى مصر وقد فهمت انه كان في مصيبة عظمية فنجاه ابي منها بتوسطه له لدى محمد علي باشا وقد كان في نيتنا ان يبقى معنا لسكي نأني به الى هنا ولكنه جاء ذات يوم مودعا وعاد ولم نعد نعلم مقره

فشعرت جميلة كأن هاتفا حدثها فانشرح صدرها لذلك الرجل وأسفت لعدم مجيئه اليها لتكائه على معروفه ولكنها لم تعلم سبب ذلك السرور وانما نسبته لرجاء ولدها من غالب الموت

وفيا كان غريب يحادث والدته ويشرح لها عما شاهده في مصر من الغرائب حانت من والدته التفاتة الى منديل من الحرير الجميل كان في يده فارتجف قلبها ونظرت اليه وتأملته فلم تقدر أن تتألك عن الدهشة ثم امسكت نفسها وتناولت المنديل وتأملته فاذا هو منديل زوجها وعليه زركشة صنع يدها فقالت لغريب من أين لك هذا المنديل يا ولدى فقال لها هو المنديل الذي عصب به ذلك

الرجل رأسي وقد بقي معي سهواً غففت ان تكثر من السؤال فتشغل افكار الغلام فصبرت لتقابل سعيداً في الصباح التالي تفاوضه في هذا الشأن ولكنها لم تعد تستطيع الرقاد تلك الليلة لشدة التأثر واشتغال البال بأمر هذا المندبل
ففي صباح اليوم التالي بكر سعيد لمشاهدة ابن سيده وما صدقت جميلة أن قابلته حتى دعته الى مكان منفرد وكان غريب لا يزال نائماً من وعشاء السفر وقالت له أنعرف هذا المندبل فهتف سعيد هذا مندبل سيدي من أين أتيت به .
فاخبرته بالقصة التي قصها عليها عريب

فقال ياسيدي لا يظهر من الحكاية شيء يؤكد ظنوننا
فقلت له : اصف هذه الحكاية الى ما كتبته لنا عريب في كتابه الأخير من مصر ونأمل

فقال سعيد هل سألته عن اسم ذلك الرجل
قلت لا ولكن كان يجب أن افعل ذلك فان الاسم يحل لنا هذا المشكل
فلما استيقظ أسأله عنه

فلما استيقظ سألته عن اسم صاحب المندبل قائلة اني قضيت هذه الليلة وأنا
اوبكر في أمر هذا الرجل وفضله علينا ولكفي لا اذكر انك لفظت اسمه
فقال يا والدتي ان اسمه سلمان

فقلت حسناً ولكنها رأت أن هذا الأسم هو غير اسم زوجها
فانتفت الشبهة من ذهنها وقالت ان هذا المندبل قد وقع اتفاقاً في يد ذلك الرجل
وعلى كل فاني استأس به واشتم رائحة منى فوادي فاحتفظت به ولما كلمت
سعيداً في شأن ذلك وانتبا على ظنرا

الفصل الخامس والعشرون

بارقة أمل

اما ما كان من امر الأمير بشير فانه بقي في مصر حتى دخلت سنة ١٨٢٢م
ووردت فرمانات العفو عن عبد الله باشا من الباب العالي فشكره عزيمة عزيز

مصر واستأذن في العود الى بلاده فطلب اليه محمد علي أن يبقى في مصر مدة الى أن قال له « اني لم افعل ما فعلته مع والي عكا الا مرضاة لك واود بقاءك هنا لأنك بمنزلة ابني ابراهيم » فشكر فضله قائلاً عسى اني استطيع مكافأتك ايها الوزير الجليل فاهداء واهدي اولاده ثلاث فراء وثلاثة من الخيل الجياد وقال له اذا كنت تستطيع ان تعي لي اربعة آلاف مقاتل من رجالك الأقوياء فافعل لان مرادي ان ارسلها نجدة لولدى ابراهيم فانه سارلحاربة بلاد اليونان لانها شقت عصا طاعة الدولة العثمانية وعهدي رجال لبنان اشداء يعتمد عليهم وقت الشدة فقال سمعاً وطاعة

ثم ودع المزير ونزل الاسكندرية فلم يدخلها لتفشى وباء الطاعون فيها فنزل خارجها ثم في السفينة الى عكا فلما وصل تلك المدينة اطلقت المدافع وكانت عكا محاصرة بعساكر الدولة حتى ورد الفرمان فبطل الحصار واطلقت جيوش الدولة ترحاباً بالامير وذلك بعد اطلاعهم على الفرمان الذي ارسل اليهم على يد السلاح دار المرسل مع الامير بشير من لدى محمد علي باشا ورضوخاً للاوامر العلية عادت الجنود العثمانية عن عكا وسار الاميران خليل وامين الى بيت الدين واما الامير بشير فبقي في تلك المدينة مدة وسارت البشائر الى اللبنانيين بالعمو عن عبد الله باشا

أما ولدا الامير فلما وصلا الى بيت الدين جاءت اعيان البلاد للتسليم عليهما واستأنس بهما غريب على الخصوص

أما جميلة وسعيد فكانا في قلق زائد تتقاذفها الافكار والظنون من حكاية ذلك الرجل وذلك المنديل وكانا في انتظار مجيء الامير بشير عساها ان يستطلعا الحقيقة منه بوجه من الوجوه لانهما حاولا معرفة ذلك من ولديه فلم يكن عندهما اكثر مما عرفاه من غريب

ولغريب الاتفاق تأخر مجيئه لشواغل تتعلق بامارته وغيرها

فلما جاء لم تتمكن جميلة من معرفة شيء لان مجلس الامير لم يخل من المسلمين والمهنيين ولم يهدأ ناله الا بعد مدة طويلة . ففي ذات ليلة كان القمر بدرأ والجو صافياً فاحب الامير ان يقضي بضع ساعات في صحن السراي الداخلي امام بركة

الرخام ففرشت لهم الطنافس في ذلك الصحن جلّس وجلست امرأته وجميلة وأولاده بعد تناول العشاء وشرب القهوة . فاتكأ الأمير يتأمل بحمال الطبيعة وينتقل بأفكاره من ناحية إلى أخرى خال في خاطره سفره إلى مصر وما كان من ترحاب عزيزها به إلى أن طرقت ذهنه مسألة غريب وجموح ذلك الجواد به فالتفت بغتة إلى امرأته قائلاً اتذكّرين يا أم خليل (يريد امرأته) قصة الاميرة سلمى . خفق قلب جميلة بغتة وقالت امرأة الأمير نعم أذكرها ولا انسأها لاني كنت احبها حبة عظيمة ومما زادني تذكّارها عزيزتي جميلة لانها تشبهها شهاً عجيباً كما اشرت اليك مرة . فتزايد خفقان قلب جميلة حتى انها لم تعد تتألك عن اظهار عواطفها فقال الأمير وما ظنك بها . قالت لا أظن أنها باقية في قيد الحياة فرحم الله والدها انه كان سبب فقدانها ولكن ما الذي اخطرها على بالك الآن

قال الأمير سمعت في اثناء سفري قصة عجيبة ساقصها عليك على افراد لاني اوصيت ان لا أبوح بها إلى احد ولكني سأقصها لاني وإياك جسد واحد حسب قول الانجيل فلا أكون خالفت الوصية

ولا تسل عن حال جميلة وقتئذ فاتها خافت ان يكلمها الأمير فيتاعثم لسانها لشدة تأثيرها فينكشف امرها على أنها كانت متشوقة لسماع تلك الحكاية لكن لم يمكنها اظهار تلك الرغبة بل لم يكن في امكانها أن تسأل الأمير عن ذلك لانها كانت شديدة الاضطراب وقد خالج قلبها الخوف والملع فاحبت الذهاب من الغرفة ريثما يسكن روعها فلم تستطع الوقوف

فقالت امرأة الأمير ما المانع من أن تقص علينا تلك القصة الآن بدون ان تذكر اسماء الاشخاص بحيث تكون الحكاية مبهمة ثم توضح لي اياها على حدة بالتفصيل اذ لم يعد لي صبر عن استماعها

فقال الأمير اخشى أن أكون قد خالفت الوصية وهذا أمر يعز علي اذ اكون قد فعلت فعل الحائنين وانما أقول لك الآن كلمة واحدة من تلك القصة وهي اني التقيت في سفري هذا بالرجل الذي اختطفها واطلعني على . . . ولم يتم عبارته حتى تنهدت جميلة من صميم قلبها واغمي عليها وكان غريب بجانبها فذعر

وصاح أماءه — ما بالك ثم بادر الحاضرون فأتوها بالمشمومات ورشوا على وجهها الماء حتى افافت وهي لا تتالك عن التند والبكاء فاضطرب الجميع وظنوا انها اصيبت بداء الصرع أو غيره من الادواء العصبية فاخذوا يسألونها عن سبب ذلك ولما سكن ما بها احبت ان تعتذر وتمسك عواطفها فتجلدت واخذت تظهر ان ذلك حصل منها لغير سبب تعلمه

أما الامير فلم يصدق ذلك الاعتذار وقد تقدم انه خامره شك في دعوى جميلة ولا بد أن ذلك بقي يختلج في صدره الى أن جاء بيت الدين وربما اراد الاشارة الى تلك الحكاية تحقيقاً لظنه فلما ظهر منها ذلك الانفعال لم يجد له سبباً غير ما حكاه . على انه لم يشأ ان يلح عليها مراعاة للطف مزاجها وخوفاً عليها مما هو أعظم من ذلك فاخذ يمهدها العذر ويقول نعم ان هذا الاعماء كثيراً ما يصيب عصبيات المزاج . وجعل يراجع في ذاكرته ما عرفه عن جميلة حتى اتصل الى اول ساعة عرفها بها فذكر انها لم تجربها عن اصلها بل كانت تحاول اخفاء ذلك ما استطاعت

ومرت كل هذه التصورات في غيخته باسرع من ملح البصر فاستأنف الحديث مظهرًا انه لا يعلم شيئاً من امر جميلة وقال لامرأته قلت لك اني سأحبرك بهذا الحديث في مساء هذه الليلة أو غداً ان شاء الله تعالى الا ان عزيزتنا السيدة جميلة قد كدرت صفاءنا الآن بما عرض لها في هذه الليلة

اما جميلة فكانت متكئة على صدر غريب لا تبدي حراكاً ولا تنطق بكلمة . وشعر الأمير بذلك خاف عليها فقال لها أظن الأفضل لك أن تسيري الى فراشك فاعلم ما عرض لك من تأثير ضوء القمر . اما هي فلم تجبه ولكنها حاولت النهوض فلم تستطع لأن ركبتيها كانتا ترتجفان رغم ارادتها ولم يكن ذلك الا ليزيد ارتباكها وخجلها لكنها تجللت ونهضت بمساعدة غريب وسارت توا الى حجرتها وسار غريب معها فاستلقت على الفراش واطلقت لنفسها عنان البكاء لأن العبرات كانت قد خفقتا . فاضطرب غريب وأخذ يكلمها ويسألها عن سبب ذلك فلم تجبه وانما كانت تشير اليه ان لا يرفع صوته لئلا يسمع احد منهم فاضطرب الغلام وصار يبكي لبكاها

أما هي فتمثل لها زوجها كما شاهدته المرة الأخيرة خارجاً من البيت راكباً على جواده قاصداً القلعة وزاد بها الوجد حتى ظنت ذلك الحيال حفيقة فمادت أمين . . أمين . . فظنها غريب تريد أميماً اس الأمير بشير فخرج وناداه ولما دخل وجدها على تلك الحال فقال لها ما بالاك يا خالتي تنادينني هل تريدني شيئاً فانتبهت لنفسها ونهضت من الفراش قائلة اما لم اناك يا عزيزي وقد ناداك غريب خطأ . فقاطعها غريب قائلاً بل سمعتك ترددتين ذكر أمين أكثر من ثلاث مرات وليس عندنا أمين آخر هنا . فقالت اداً ربما كان ذلك خطأ مني فاحذ أمين بلاطفها ويخفف عنها ويأتبها بماء الزهر وعبره من المعشاة تسكيناً لعواطفها

أما الأمير بشير فسأل امرأته اذا كانت هذه الأعراض تصيب جميلة من قبل . فقالت لا بل ان هذه أول مرة شاهدتها فيها وظهر على امرأة الأمير الانزعاج لذلك المظهر ففضلت الدحول الى حجرتها فراقبها الأمير بشير فدخل كل مخدعه مفكراً بامر جميلة وبعثوا يسألون عنها وعن راحتها . فبعثت هي تطيب خاطرهم خوفاً من أن يأتوا اليها ويشاهدوا سوء حالها

فاخذت جميلة تلوم نفسها على ما ظهر منها علماً ان ذلك مما يوقع عليها الشبهة وربما آل الى انكشاف أمرها ولو علمت ان الأمير بشير قد صمغ عن عملها وعمل زوجها لما تأثرت الى هذا الحد واما كانت تعتقد ان انكشاف امرها ربما آل الى انتقام الأمير منها فصلاً عن انه يحلب العار عليها

فقضت الليل وهي في لجج من الهواجس والخاوف حتى ضاق بها المخدع فنهضت من فراشها فادا بغريب قد رقد ففتحت باب المخدع رويداً رويداً وخرجت الى الدار والسكون مستول على تلك السراى لا يسمع فيها الا صوت سواقي المياه التي تسقى بساتين بيت الدين فاخذت تنقل قدميها بكل هدو الى نافذة مشرفة على كروم تلك القرية وبساتينها ثم تطلعت من تلك النافذة فادا بذلك الوادي مغوف ناشجار التوت والنين والسكرم الممتد الى البحر المنوسد بعد أن يمر متعرجاً بين جبال شاخنة مكسوة بتلك الاشجار فكان يحال للماظر

ان ظلها لأرواح علوية قد راق لها التوسد على تلك التلال غافت عيون البشر فاستترت وراء الشجر . فاستولت الرهبة على جميلة وأثر في نفسها ذلك المنظر العجيب وأخذت تتأمل في ما حدث منها وما سمعته من الأمير بشير وكانت كلما ذكرت يمتلج قلبها وتضطك ركبناها ثم تحدث نفسها وتبحث عن وسيلة تتصل بها الى معرفة حقيقة الخبر فكانت تقول تارة الافضل أن اطلع الامير على حقيقة أمري وأترامى على قدميه وأطلب السماح منه وأستطلع حقيقة الامر فعسى أن يكون حبيبي لا يزال في قيد الحياة . ثم ترجع فتقول لا لا . لا أظن ذلك فقد اصبح في عالم الاموات منذ سنين ثم تعود فتذكر ما كتبه اليها غريب عن الذي نجح من الممالك فتعلل نفسها بلعل وعسى وقضت ساعة في تلك الهواجس

ثم طرق ذهنها بغتة خادمها سعيد ورئيس الدير غفقت هواجسها اذ علمت أنهما عالمان أسرارها ولا سيما سعيد فعزمت أن تستدعيه في الصباح وتطلعه على حقيقة الامر ثم تطلب اليه أن يدعو لها الرئيس ليتفاوضا جميعاً في الامر وعند ذلك هان عليها كشف أمرها للأمير على يد رئيس ذلك الدير لما علمته من منزلته عنده . فشعرت عندئذ كأن حجراً ثقيلاً ترحزح عن صدرها وانفتح لها باب الفرج ثم أحست بالبرد فعادت الهويناء الى غندعها وباتت وقد خيل لها انها بلغت غاية السعادة

أما الامير بشير فلما سارت امرأته الى فراشها منزججة أجل شرح الحكاية الى وقت آخر وسار هو الى فراشه

وفي الصباح بعثت امرأة الامير تسأل عن جميلة وصحتها فقيل لها انها بصحة وسلام . ولما استيقظت جميلة بعثت غريباً يستدعي سعيداً فلما حضر قصت عليه ما كان من الاول الى الآخر وطلبت اليه أن يستحضر الرئيس للمفاوضة في ذلك فلما حضر الرئيس قبلت جميلة يده وجلس الثلاثة يتفاوضون

فقال جميلة ان قلبي أيها الأب المحترم لم يعد يحتمل شيئاً لشدة ما عانيت في الليلة الماضية وقد شعرت انني لا أستطيع أن أصنع شيئاً اذا لم تمداني برأيكما أما زوجي فلا اعلم اذا كان ظني يصدقني فقد تجددت آمالي (قالت ذلك وتهدت

متأوهة) وليس ذلك مجرد وهم وإنما هناك بعض التسوغات له : منها الحديث المشهور بنجاة أحد أمراء المالك ثم هذا المنديل الذي أتى به غريب من ذلك الرجل الذي انقذه من الموت فإنه منديل سيدي ومهجة فؤادي ثم قال الأمير أمس ان الرجل الذي اختطفني لا يزال في قيد الحياة وهذا أكبر دليل عندي على انتعاش الامل وعليه فلم يعد علينا الا استطلاع قصة الأمير عن ذلك الرجل فانها تزيل كل شك وهذا يقتضي كشف امري وادا كنت أنا السائلة فإخاف من ذلك على حياتي أو بالأقل على شرفي لاني أعلم اني فعلت في أول حياتي ما يغير ارادة والدي ويخالف مبدأ عائلتنا بالاقتران برجل أجنبي فأخاف على نفسي من العار ادا كنت لا أخاف عليها من الموت . وكان الرئيس لم يعلم خبر اختطافها ولا كونها من عائلة الأمير بشير فرأى في حديثها شيئاً اهتم عليه فلاحظ سعيد منه ذلك فقص عليه حكاية سلمى منذ حرونها من بيت أبيها فمجب الرئيس لذلك الاتفاق العجيب ثم تبسم ونظر الى جميلة بوجه ضحوك قائلاً طيبي نفسك أيتها السيدة ولا تخافي فاني قد تعهدت لك منذ عرفتك بان أكون مستعداً لكل خدمة اقدر عليها لاجل خيرك ويلوح لي الآن اني سعيد لاني قادر بمعونة الحي ان أقوم أمامك بهذه الخدمة وانلها أكبر خدمة لك فتنهدت جميلة قائلة نعم يا حضرة الاب فانك تكون قد أنقذت نفسك من الموت وعسى أن تكون العاقبة خيراً ويكون ذلك الحبيب لا يزال في قيد الحياة فتكون قد أنقذت نفسك

فأسرع سعيد وقبل يدي الرئيس وجثا عند قدميه قائلاً انك اذا فعلت ذلك أيها السيد المحترم اكون لك عبداً الى الابد فبحياة كهوتك دبرنا برأيك

الفصل السادس والعشرون

استطلاع الحقيقة

فقال الرئيس طيباً نفساً وقرأ عينا فها أنا ذاهب إلى الأمير في مساء هذه الليلة لأنى أخشى أن لا أقدر على مواجهته في النهار لكثرة شواغله في هذه الاثناء لأن الأمير عباساً الذي تولى لبنان في المدة الأخيرة يسعى في استعطف خاطر الأمير وقد توسط الناس في أمر الصلح ولا يرى إلا مشايخ وأمراء يدخلون مجلس الأمير ويخرجون منه . أما في المساء فعلى المالب أن يكون خالياً من مثل هذه الشواغل ومسلتنا هذه في غاية الدقة وينبغي أن أخطب بها الأمير وألزم جانب الحذر والاحتياط خوفاً من غضبه لانه اذا غضب يصعب علينا استعطافه وإذا أمر فمن يرد أمره غير الله وعليه ويجب أن تتكل على الله الأزلي القادر على كل شيء وقد صرت من الآن فصاعداً أصلي من أجلك يا ابنتي ومن أجل زوجك عسى أن يجمعكما الله مرة ثانية قبل اجتماعكما في الدار الابدية . قال ذلك ونهض فنهضت جميلة وقلمت يديه وفعل سعيد مثل ذلك وشيعاه ورجعا

وفيما هو خارج من دار الحرم حانت منه النفاتة فسمع حرس قاعة مجلس الأمير يناديه قائلاً ان الأمير بشير يدعوك اليه فصعد السلم حتى دخل القاعة فرأى الأمير وحده فنعجب لان ذلك قلما يتفق للأمير بشير فلما دخل وحياً رد عليه الأمير السلام وقبل يده فتوسم في وجه الأمير بعض ملامح الكدر والارتباك فجلس الرئيس وقد اشتغل باله ففاتحه الأمير بالحطاب قائلاً أراك مشرفاً في هذا الصباح يا حضرة الرئيس وقد طال زمن غيابك

فقال الرئيس أنت تعلم يا سيدنا الأمير اننا من حشم سعادتك وليس لنا راحة إلا برضاك وقد تشرفنا بزيارتك والسلام عليك يوم عيذك من الديار المصرية ثم رأيت كثرة الشواغل التي تتجاذبك فقللت من التردد لئلا اكون شاغلاً لك عن شغلك

فقال الامير فكيف شرفتنا في هذا الصباح

فاثته ارييس في هذا السؤال الذي لم يكن ينتظره من الامير ولكنه تجاهل وأجابه قائلا إني أتيت في هذا الصباح لزيارة صديقتي القدعة السيدة أم غريب

فقاطعه الامير مازحاً أدام الله هذه الصداقة بينكما ولكني لا أظن بحيثك با كراً في هذا الصباح كان من تلقاء نفسك . فتأكد الرئيس أن الامير يريد استطلاعاه عن سبب بحيثه فتقدم نحوه باهتمام وقال ان حقيقه الامر أيها الامير الجليل اني جئت بدعوة من السيدة جميلة لتشكو لي ما ألم بها أمس من العوارض التي كادت تقضي عليها وقد أفهمتي أموراً أحببت كتمانها عن سعادتكم خوفاً من غضبكم لان حكايتها أغرب من حكاية السيدة سلمى التي عرضتم مساء أمس بذكرها . فضحك الامير قائلًا إن قصه السيدة أم غريب ليست عربية عن الامير بشير وان كانت عربية عن قدسك فان الذي عرف عجيبها الى هذه القرية ساعة وصولها لا تخفى عليه حكايتها وان حاولت هي احماها

اتظن اني لم أقرأ حكايتها أمس على وجهها مكتوبة يبراع عواظها ولا حاجة إلى التستر فيما بعد ولولا خوفي عليها أمس ان تذهب فريسة الخوف والوجل لصرحت لها بذلك ولكني تجاهلت وامرتها أن تذهب إلى عودها تلافياً للامر وقد كان في نيتي أن أستدعيك في هذا الهار لأجعلك واسطة للنفام بيننا لأنني أعلم أنها ربما لشدة تأثرها تصاب بسوء وقد أوصيت الحراس أن لا يأتوا لأحد بالدخول علي لسكني اخبرك أنني عهوت عن زوجهما يوم حدثني بحديثه على أثر اعاده غريباً من غالب الموت وهب انني لم أعف عنه فاني أضن بهذه المرأة لأن مشيلاتها قليلات

وأحب الآن أن آتي بها إلى هنا وأطلعها على حكاية روحها ولكني لا يحب أن أبعث وراءها إذ أخاف أن تشته في مقصدي وترتم فلاوصل أن تذهب

حضرتك اليها وتشرح لها كل ما قلته لك ثم تأتي بها الى هنا بعد أن تتأكد
اطمئنان قلبها

فذهب الرئيس الى جميلة واذا هي لا تزال تحدث سعيداً بتلك القصة فلما رأته تغير
لونها وخافت ان يكون لذلك سبب داع الى الخوف فابتدرها هو بالكلام قائلاً
تعالوا بنا نشكر الله تعالى الذي وفق لنا سعيينا . فاستبشرت جميلة وشكرت الله
فاطلعها الرئيس على كل ما سمعه من الأمير فاشرح صدرها ولكنها لا تزال
تخاف مقابلة الأمير فاخذها ورافقهما سعيد حتى وصلوا الى حيث الأمير فدخل
الرئيس أولاً وأمسك جميلة بيدها وأدخلها أما هي فكانت مطرقة برأسها
إلى الأرض ولما وصلت إلى أمام الأمير ترامت عند قدميه باكية وقبلتها قائلة
أصفح أيها الأمير عن هذه الشقية المخطئة العفوية أو فاقتلها فانها تستحق القتل
فأمسك الأمير بيدها وأنهضها قائلاً أهلاً ومرحباً بابنة عمي سلمى لقد صفحت
عنك يا عزيزتي والله غفار الذنوب تعالى واجلسي الي واتركي عنك الخوف . ثم
بعث الى امرأته فلما حضرت اطلعها على حقيقة الامر وجلس يقص عليهم حكاية
أمين بك وقد ذهبل الجميع واستولت السكينة عليهم وكأن على رؤسهم الطير
وهم ينتظرون ما سيكون من تنمة هذا الحديث . أما جميلة فكانت تنتظر
حنامه بفروغ صبر لانها كانت عالمة ببدايته فلما وصل الأمير الى وداع امين بك
له ولأولاده وذهابه قالت جميلة إلى أين توجه قال الأمير لا أعلم يا عزيزتي لو
عرفت انه ذاهب لما سمحت بذهابه معها كلفني امساكه على أنه لو علم هو أن
زوجته عندي لما سمح بفراقى ولكن ما العمل فهذه ارادة الله

فتقدم سعيد واستأذن الأمير في الكلام فاذن فقال ما الفائدة يا سيدي اذا
سمعنا بوجود سيدي ولم نره فالآن يجب بعد أمر سعادتك ان ندير وسيلة نتصل
بها اليه

فقال الأمير لا بد لنا من ارسال رجل خبير بأحوال الطريق يتوجه الى
مصر وأصعبه بكتاب إلى العزيز أطلب اليه فيه ان يساعدني على وجود ذلك
الرجل

فقال سعيد أنا أذهب ولا أعود اليكم الا بعد أن آتي به سالماً ان شاء الله

فقال الأمير ستنظر في ذلك غداً فقال سعيد ياسيدي لا حاجة بنا الى التأجيل فاني أعلم ان سيدتي كانت على جمر الغضا وأما أنا فلا تسأل عن قلبي الآن فارحو أن تأذن لي في الذهاب الى مصر اليوم للتفتيش عن سيدي خبر البر عاجله . فعجب الجميع من شهادة هذا العبد وغيرته وللحال أمر الأمير كاتب أسرارہ المعلم بطرس كرامه أن يكتب كتاباً إلى محمد علي باشا في هذا الشأن ليساعد سعيداً في البحث عن سيده فاخذ سعيد يعد كل ما يلزمه للسفر

وبعد ظهر ذلك النهار ودع الأمير بشيراً وجميع أهل القصر ولا سيما جميلة وغريباً وخرج من بيت الدين راكباً والجميع يدعونه بالنوفيق أما جميلة فبعد أن أتم الأمير حديثه وقفت بين يديه قائلة أسألك ياسيدي وأسألك جميعاً أيها الحاضرون ان لا تطلعوا غريباً على هذه الحكاية لاني اخشى أن لا نظفر بوالده لا سمح الله فنكون قد سببنا له السكدر بغير داع أما اذا ظفرنا به فنظلمه على حقيقة حاله لانه الآن يظن نفسه ابن الأمير بشير فتركوه على هذا الاعتقاد لئلا نرى ما سيكون من أمر سعيد وسفره . فوافقها الجميع على ذلك . قلت ذلك وخرجت من عند الأمير فخرجت معها امرأة الأمير ولم تعد تفارقها كل ذلك النهار وهي تسألها عن حديثها وتخبرها عما جرى بأبيها بعد ضياعها فذكرتها بوفاته فبكت عليه وأخبرتها امرأة الأمير انه لم يعد من عائلتها أحد لان والدتها توفيت بعد وفاة والدها بقليل فتكدرت جميلة لذلك

أما غريب فلبث لا يعلم بشيء من حكاية والده . فلما حاه سعيد لوداعه عجب من ذلك وسأله الى اين انت متوجه فقال إلى مصر فسأل والدته عن سبب سفره فقالت قد توجه بأمر خاص من الأمير بشير الى عزيز مصر فصدقها أما سعيد فانه سار قاصداً مصر ويده كتاب الأمير وقد عقد النية على ان لا يعود إلى لبنان قبل ان يجيء بسيدة حيثما كان . وكان هذا الرجل من اصحاب الغيرة والعزيمة والتدبير

فلما وصل القاهرة تذكر ما قضى فيها من الايام وكان قد عرف شوارعها وحاراتها معرفة جيدة وسار لمواجمة عزيزها فقبل له انه في سرايه بشيرا منذ بضعة ايام فسار اليه فلما وصل باب السراي قابله الخفير وسأله عن غرضه فقال

بدي كتاب لسعادة الباشا وأريد أن أسلمه اليه يدّاً بيد فاستأذنوا الباشا فقال ليحضر . ودخل سعيد وفي يده كتاب الامير فقبل يد الباشا فاخذ محمد علي باشا الكتاب وفضه وقرأه ثم التفت الى سعيد قائلاً هل انت سعيد خصي أمين بك قال نعم ياسيدي . فقال الباشا وابن كنت الى الآن . لاحول ولا قوة الا بالله . فان سيدك قد سار الى الأقطار السودانية طلباً للموت بعد ان قنط من الحياة لانه لم يعلم مقر امراته فاحب الانتحار ثم رأى ان يسير إلى حيث يكثر الموت لعله يموت موتاً شريعاً فعرض علي رأيه هذا فنصحت له أن يعدل عن هذه الافكار فأبى فعمته مع حملة كانت متوجهة إلى السودان لامداد ابني اسماعيل على أهل السودان

فأطم سعيد وجهه قائلاً لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم أطرق هنيهة وقال لا بأس لعله خير . وهل تعلم ياسيدي اين يكون الآن بوجه التقريب لان السودان بلاد واسعة . فاحابه الباشا على الغالب انه يكون ما بين الخرطوم وسنار أو قبل ذلك بقليل ولكن ما العائدة من هذا السؤال

فقال سعيد مرادي ان أسير اليه بنفسه لعلّي أظفر به أو أصاب بما أصيب هو به فقال الباشا ولكن هناك أخطاراً جمة ومشقات عظيمة فلا يستطيع الرجل أن يسير منفرداً في تلك الاصقاع . فتبسم سعيد قائلاً ان عبدك ايها العزيز يعرف الاصقاع السودانية شبراً شبراً وأعرف لغة تلك البلاد وكل عوائدها وفي بيتي أن ادخل فيما بينهم كواحد منهم وسأوصل ما استطيع ايصاله من الانباء السرية الى قواد جنابكم ههنا ان شاء الله

ثم قبل يد الباشا بعد أن أخذ منه كتاب توصية لابنه فجعل ذلك الكتاب في بطاقة حذائه اخفاه له وقد اختلج قلبه في صدره خوفاً على سيده من الانتحار أو من الوقوع في المهلكة فبقى ذلك اليوم وسواد ليله في التأهب للمسير وحمد الى شحم دهن به حله كما يفعل السودانيون وجدل حدائل الشعر وأرخاها متلبدة على رأسه بعد أن دهنها بالشحم وجاء بشملة من العطن واشتمل بها وهي قطعة مستطيلة من نسيج الصعيد تبلغ عشرة أذرع وهو اسود فلم يستطع أحد أن يميزه عن أهل السودان شيء واشترى حملاً سريع الجري

عليه رحل خفيف وعلق في كل من حاليه قرنة من الماء وهياً كل ما يحتاج اليه
المسافر الى تلك البلاد وكتب كتاباً الى بيت الدين ينضمهم بما تم له وبعزمه على
السفر

وفي صباح اليوم التالي سأل عن كل ما امكبه السؤال عنه من أخبار الحملة
التي سار سيده برفقتها بعد أن عرف باسمه الحديد وركب الحمل خارج القاهرة
بعد أن لبس تلك الثياب وعلق برجل الحمل الدرق السودانية المصنوعة من
جلد وحيد القرن صنع أهل السودان واعمل رعمه وعلق سيفه السوداني
بكتفه وسكيا سودانية بكوعه وملاصة من النبع الصعيدي الذي يشربه أهل
تلك الاصقاع وتوجه قاصداً الخرطوم

فاتخذ الصحراء الشرقية خطاً مسره عاوياً لحرى النيل قاصداً كروسكو
على أن يسر من هناك في الصحراء التي يسمونها العظمور الى أي حمد بحوار
رببر ومن هناك يسر خوار النيل الى الخرطوم

الفصل السابع والعشرون

التفتيش عن أمين بك

فلترك سعيداً متوجهاً الى الخرطوم وليرجع بالقاريه الى بيت الدين حيث
تركها حميلة تنقلب على مثل الغضى في انتظار عود سعيد وهي لم تكن عالمة بسفر
روحها الى الافطار السودانية واعلم كانت تظن انه في مصر ولا يتنصي شهر
من مسير سعيد حتى يعود به فتراه

فصلى اسبوعان والثالث وفي أوائل الرابع جاءها البريد بكتاب من
وهذا صه

سيدتي المحترمة المصونة

أقل يديك وبعد فاني بلغت القاهرة وبخثت عن سيدي فلمت انه توجه
الى الاقطار السودانية منذ أشهر في حملة كانت داهية لخدمة اسماعيل باشا
إخضاع السودان وقد التزم السفر إلى هناك على ما علمت قنوطاً من الحياه

لانه لم يكن يعلم ببقائك حية وقد كان عازما على الانتحار ففضل الموت في
ساحة الحرب . ولكن لا تخفى فهأنا قد تلقيت كتابا من العزيز محمد
علي باشا وتهيات للسفر الى الاقطار السودانية حيث أفتش عن سيدى
البيك وعلى الغالب اني لا أغيب أكثر من شهرين ثم أعود اليكم به ان شاء
الله تعالى

خادمك

سعيد

فلما قرأت الكتاب خفق قلبها ووقعت في حيرة وأطلعت امرأة الامير بشير
عليه وهذه أخبرت الامير فطيب خاطرها

فمضى الشهران ولم يرد عليهم خبر فاضطربت جميلة (أو سلمى) ولم يعد
يمكنها الفرار وجعلت تحسب الف حساب ولما زاد بها الفلق توجهت الى الامير
بشير وقبلت يديه وشكت اليه فلقها فوعدها أن يكب الى عزيز مصر يسأله
عن حقيقة الخبر

وبعد أسبوعين ورد الجواب من عزيز مصر يقول فيه : « ان الفرقة التي
سار برفقتها أمين بك قد ألحقت بحملة ولدي اسماعيل والجميع الآن قادمون
من الخرطوم شمالا في جمع الميرة والرجال والاغلب أن يلتقي بهم سعيد رسول
سعادتك في جهات شندي وقد أصبحت بكتاب الى ولدي اسماعيل حتى لا يستغشه
ولكي يسلم له أمين بك والسلام »

فلما اطلعت جميلة على ذلك سكن روعها وأخذت تنتظر الفرج من
عند الله . أما غريب فكان بمعزل عن تلك الحوادث يقضي بعض نهاره في التعلم
والبعض الآخر في ركوب الخيل والعباب الجريد والسيف وسائر أنواع الفروسية
مع أولاد الامير بشير وكان الجميع يحبونه حبا عظيما

وبعد قليل وردت الاخبار من مصر بمقتل اسماعيل باشا ومن معه في شندي
بمكيدة وأول من سمع ذلك الخبر الامير بشير وكان عالما ان أمين بك معه
فترجع عنده انه قتل في جملة من قتل ولكنه أحب كتمان الامر عن جميلة
خوفا عليها ولكنه أخبر امرأته غير ان ذلك الخبر شاع في بيت الدين بعد بضعة

أيام وبلغ جميلة فوقعت في وهدة اليأس فجاءت الى الامير وكان قد أدن لها بمقابلته في أي وقت أرادت جبراً لقلها المكسور فحدثته بما سمعت فقال لها اعلمي يا سلمى ان ذلك قد بلغني منذ بضعة أيام ولا يمكننا أن نسلم بشيء قبل ان نتحقق الخبر فهأنا سأكتب الى عزيز مصر كتاب تعزية بولده اسماعيل وأسأله عما يعلمه عن زوحك

فتنهدت سلمى وصمتت وقد اغرورقت عينها بالدموع ثم قالت بالحقيقة ياسيدى ان هذا القلب لم يعد يحتمل العذاب والشقاء فياليتني لم اسمع بوجوده لاني قد كنت سلوته وقطعت الامل من حياته ولعل ذلك لم يكن الا لاجل عذابي وتكفيراً لذنوبي التي اقترقتها في صباى

فاخذ الامير يسكن روعها ويصبرها ثم قال ان الخبر الصحيح سيكون عندنا بعد اسبوعين على الكثير وسأكتب اليوم الى عزيز مصر في شأن ذلك . فانصرفت جميلة عن حضرة الامير وهي غير راجية خيراً فراققتها امرأة الامير وأخذت تسكن روعها وتمنيها بالعودة ولكن قلبها لم يكن ليفرح لشدة ما قاساه من الشقاء وما تعودته من الاقباض

وبعد اسبوعين ورد الجواب من محمد علي باشا ونصه بعد الديباجة :

د ان التقارير التي وردت علي خطأ وشفاهاً لم تذكر شيئاً عن أمين بك وقد سألت بعض الذين كانوا في تلك المذبحة فقالوا ان الرجل كان في جملة الضباط ولم يعد يراه أحد بعد ذلك لان الذين نجوا من المذبحة قليلون وقد تشتتوا فلا يمكننا الحكم في شيء من ذلك فمن الممكن أن يكون قد نجى في جملة الذين نجوا أو يكون قد قتل في جملة من قتل والله اعلم ،

فوصل الجواب رأساً الى الامير وبعد أن تلاه ترجع له مقتل أمين بك لانه علم من كتاب سعيد الاول ان الرجل سار الى السودان طلباً للموت فكيف يموت كل رفاقه وينجو هو وحده

وكانت سلمى تنتظر ورود الجواب من مصر بفروع صبر فلما مضى الاسبوعان توجهت الى الامير تسأله عن ذلك فلما دخلت عليه أحب أن يخفي عنها الحقيقة فألحت عليه فقال لها ان الاخبار الواردة على من عزيز مصر تقول

اهم لا يعلمون شيئاً عن زوجك فقد كان مع رجال اسماعيل في شندي ولم يعودوا يعلمون عنه خبراً فلم تصدق جميلة ذلك فاطلمها على الكتاب فتأوهت وبكت ولكنها أمسكت نفسها أمام الامر ولما خرجت من حضرتها سارت نواً الى عرقها فدخلت وأقفلت الباب عليها وأخذت تدب سوء حظها وتلطم وتبكي وكانت الامير قد أحس منذ خروجها من عنده انها ذاهبة الى حيث يمكنها اطلاق العنان لكائنها غاف عليها فبعث الى امرأته لحضرت فاجبرها بالامر وقل لها سري الى سلمى وخفي عنها وعزبها لثلاث نضر بها شدة الحزن

حالت امرأة الامير الى حجرة سلمى ورأت الباب مقفلاً وسمعت صوت بكاء ونحيب من الداخل وقرعت الباب قرعاً خفيفاً ونادت سلمى فأجابتها وفتحت لها الباب فرأتها في حالة يرثى لها من الحزن والكآبة فاحذت تلاطفها وتعزيها قائلة يا اخي تذكرى انك كنت قد يئست من الاجتماع به فاحسبى انك لم نعلمي بوجوده وفضلاً عن ذلك فانا لم ننأ كد الحزن ولعله تأخر لسبب لانه لم فاصبري والله مع الصابرين

فاجابت سلمى وقد احمرت عيناها من البكاء قائلة اني لا أحهل شيئاً من ذلك يا عربزتي ولكنني أتخسر على يوم يئسنا فيه من حياته . أما قولك اننا لم ننأ كد خبره فانا لا أشك انه والحق عليه قد صار في عالم الاموات . قالت ذلك وتساقطت العبرات على خديها حتى ملئت منديلها

فتداركتها امرأة الامير وهي تمسح عينيها قائلة كيف يمكننا الحزم بذلك ونحن لم نلقى خبراً صريحاً لا سلباً ولا ايجاباً وانما أعمالنا هذه كلها مبنية على مجرد التخمين فعلياً ان ثقب بالله ولا نقطع الأمل . فامسكت سلمى هنيهة عن البكاء ثم التفتت الى امرأة الامير قائلة أنا اقول لك ما هو المسوع لطني الذي ذكرته لك ثم نهضت الى خزانة وفتحتها وحالت منها بكتات ودفعته اليها وإذا هو كتاب سعيد الذي يقول فيه ان سيده سافر الى الاقطار السودانية قووطاً من الحياة لعدم ظفره بامرأته وكان يريد الانتحار ففضل ان يموت في ساحة الحرب على ان يقتل نفسه بيده

فبعد أن أتمت امرأة الأمير تلاوته قالت لها سلمى اتظنين ان الرجل يذهب الى الحرب رغبة في الموت مع علما يقتل من معه وينجو هو وحده وكيف ينجو بغير ان يهر وهو لا يمكن ان يهرب لانه طالب للموت ساع وراءه متى جاءه رجب به

فقالت امرأة الأمير (وكأنها فتحت عليها برأي حديد) دعني عنك هذه الاوهام فان سعيداً لم يعض عليه عبر ثلاثة اشهر منذ ذهب ولم يعد اليها ولا أرسل لنا علماً بذلك ونحن نعلم انه في الاقطار السودانية فلو علم بشيء أفلم يكن يحصر لا بلاغا ذلك أو يكتب اليها في هذا الصدد ولا مسوع لجميع أعمالك ولا فائدة منها وبعد قليل يأتي ولدك من الميدان وراك على هذه الحال وهو غير عالم بشيء من قصة أبيه فيشعل باله وزيد قلقه عليك ورعا الحاك إلى اطلاعه على سبب هذا البكاء فهل تخبر به السبب الحقيقى

فأجابت سلمى لا لا يمكن أن أخبره وإنى أشكر الله تعالى لأنى لم أطلعه على هذه القصة من أول الامر ويا ليتنى لم أطلع عليها أنا أيضاً إذ لا فائدة منها إلا تجديد الاحزان والاكدار

فهبت امرأة الأمير وأمسكت بيد سلمى وأهضتها قائلة قومي يا يا عررتى نذهب إلى الحديقة ترويحاً للشمس لئلا يأتي ولدك عريب ويراك على هذه الحال فمسحت سلمى عينيها ولبست ثيابها وخرحت معها من باب السر إلى الحديقة وفيها إيوان (كشك) من خشب استظلتا به وحلستا هناك مقدار ساعة حتى قرب الشمس من المغيب فهبستا وعادتا إلى السراي فاذا بالامير بشر بتمشي في ممشى القاعة فلما رأها أشار اليهما بالحىء اليه ففعلنا . فلما وصلت اليه سلمى أملها فادامى حزينة كثيفة على الرغم مما كانت تحاول إظهاره من البشاشة واللطف إكراماً له فقال يا سلمى إنى مشارك لك في كدرك ولكنى لا أرى مسوعاً للافراط في ذلك على حين اننا لم نعلم شيئاً حقيقياً وسأرسل رجلاً خيراً من خاصتى الى مصر فيذهب ويبحث الامر بنفسه ويأتينا بالخبر اليقين فهبت سلمى بتفصيل يده ثم شكرته على ذلك ولكن قلبها لم يكن يطمئن البتة أما رسول الأمير إلى مصر فلم يأت شيء لكنه أكد ما كان قد كتبه

محمد علي باشا وخلاصة ذلك أن امين بك كان في معسكر اسماعيل باشا إلى ساعة المدبحة فلم يعد يعلم عنه شيء
فقطعت سلمى الرجاء من حياته وصبرت على بلواها رغمًا عنها ولكنها كانت تفكر كثيراً بحادها سعيد الذي ذهب لا تقاذ زوجها وتحبث نفسها قائلة ماذا جرى له يا ترى وكانت تخشى ان يكون مصاباً بسوء لانها كانت تحبه لكثرة ما خدمها وما اظهر من الصدق والامانة في خدمتها وعند ما تضيق بها رحاب الافكار تترك الامر لله وتعزي نفسها حاسبة ان حديث زوجها من اوله الى آخره اضغاث احلام

الفصل الثامن والعشرون

سعيد في العظمور

اما ما كان من امر سعيد فانه بعد مسير ثمانية ايام في الصحراء الشرقية وصل اصوان ومنها الى كروسكو بيومين وهناك اعد كل ما يحتاج اليه لمدة عشرة ايام من الماء والطعام لان عظمور ابي حمد يقل فيه الماء كثيراً وتكثر فيه الاخطار فلاح له ان الافضل له ان يرافق احداً ممن يعرفون الطريق لئلا يتوه فوجد تجاراً من المصريين وفيهم جماعة من السوريين داهبين للتجارة بشارة من عزيز مصر بناء على ان بلاد السودان قد فتحت وفيها افضل انواع التجارة من العاج والحريت وربش النعام والصمغ العربي وما شا كل .
فهؤلاء كانوا قد اصطحبوا معهم خبراء وأعدوا كل ما يحتاجون اليه فلما رآهم سعيد حيام بلغة أهل السودان فردوا عليه التحية فسألهم عن مقصدهم فقالوا جهات الخرطوم شمالا . قالوا ولعلك جئت من هناك لامر ذي بال قال نعم جئت لامر سري وأنا عائد بمثله الى اسماعيل باشا فاستأنس هؤلاء به وأحبوا مرافقته ولسكنه كان أشد رغبة في ذلك منهم . فركب الجميع في الصباح على جمالهم وفي جملتهم عدة جال محملة احمالا مختلفة فكان من ذلك شبه قافلة وسارت الجمال التي عليها الاحمال على جانب والتي عليها التجار في جانب

ومعهم سعيد . وكانوا سائرين جميعاً في تلك الصحراء الرملية ولا صوت لجمالهم على تلك الرمال والشمس قد أشرقت وتكبدت السماء . فلما ساروا بعض النهار سألمهم عن تلك الاحمال التي هم ذاهبون بها فقالوا هي بضائع افرنجية من قماش وأدوات وبعض حاصلات الارز والسكر والقهوة نحملها الى الاراضي السودانية ونقايش بمحاصلات تلك البلاد

فقال سعيد وهل كانت هذه مهنتكم منذ زمن طويل قال أحدهم لا يا عبد الخير لان البلاد السودانية لم تكن التجارة فيها سهلة قبل سنتين من الزمن بل كانت محفوفة بالمخاطر والمكاره وكانت حاصلاتها تأتيها على يد بعض التجار من أهلها ولكن بعدان بعث اليها محمد علي باشا والينا ولده اسماعيل وفتح جانباً كبيراً منها دعانا العزيز اليه ونشطنا على أن نتوجه الى تلك الاصقاع فتمنعنا أولاً ثم قبلنا فاصحبنا بخبراء ودرربنا على التصرف

فقال سعيد يظهر ان افندينا معتن بحكومته وراحة بلاده . فقالوا جميعاً هذا لا شك فيه فانه ما من أحد ينكر فائدة اعماله ومن كان يتصور امكان وصول مصر الى هذه الحالة بعد ان كان المالك الملاعين يستبدون بها فنحمد الله على نجاتنا منهم

فقال سعيد (متجاهلاً) ومن هم هؤلاء المالك

فقال الرجل م الذين كانوا حكاماً في مصر قبل واليا محمد علي وقد كانوا يقتلون وينهبون ويستبدون بغير حساب

فقاطعه أحد رفقاته قائلاً نحمد الله أننا تخلصنا من المالك الآن ولكن لا يزال دوننا عراقل أخرى تقف في سبيل نجاح بلادنا وم هؤلاء الارناوط والمعاربة

فقال سعيد ومن هم . فقال م جنود كانوا في جملة من جاء في الحملة التي أنقذت مصر من يد الفرنسيين وهؤلاء لما أراد أفندينا تدريبهم على النظام العسكري الحديث امتنعوا وأصروا على الامتناع حتى تهددوا الباشا بالعصيان لانهم اعتبروا كل ما يخالف عاداتهم القديمة بدعة

فقال آخر ولكن لا يخفى عليك أن افندينا عرف كيف يجب أن يعاملهم

ولذلك أرسلهم الى هذه البلاد المميتة ليفتحوها ولم يكن قصده إلا أن يشعلهم عن العصيان ولكي يفتح فرصة غيابهم ويدرب الجنود المصرية كما يشاء فقال آخر ليس ذلك كل قصده بارسال الحملة الى السودان وانما قصده الاول على ما بلغني التفتيش عن معادن الذهب التي هي في أرض السودان وتوسيع التجارة

فقال سعيد وما معنى تدريب الحند على هذه الصورة وما الفائدة منه فقال الفائدة منه عظيمة لأن المائة من الجند المنظم تلاقي الفأ من غير المنظم وهل تظن أن الجيش الفرنسي الذي جاءنا منذ عشرين سنة لو لم يكن منظماً على النمط الحديث كان يمكنه أن يتغلب على فرسان الممالك الذين لا يبالون بالموت . فقال الجميع هذا صحيح

فاستأنف الرجل كلامه قائلاً ولا فدينا مقاصد كل ما يعرفها وان يكن هو لم يطلع أحدا عليها لان الكتاب يقرأ من عنوانه

فقال سعيد وما طبعك بقاصده . فقال أن افدينا أصبح بعد تربعه في دست الولاية لا يمنع بالفطر المصري ولا سيما بعد أن اختبر جنوده وأولاده في محاربة الوهابيين والسودانيين وغيرهم . ويقول البعض أن في نيه افتتاح بلاد الشام وما وراءها وانه انما يدرب الجند لهذه الغاية

فقاطعه واحد منهم قائلاً لا يبعد ذلك أن يكون صواباً وإلا فما معنى رياره الامر بشبر الشهابي أمير لبنان والمفاوضة معه سرّاً عدة مرار

فقاطعهم أحد الرفاق قائلاً ما لنا ولهذه الظنون فان ذلك كله رحم بالغيب لا يعلم به أحد إلا الله . وأما الشيء الذي لا مراجعة فيه انما هو سعي افدينا محمد علي الدائم في توطيد دعائم الامن وافتتاح المدارس والمعامل وغير ذلك من أسباب الفلاح وقد علمت انه بعث الى فرنسا يستجلب طبيباً ماهراً لافتتاح مدرسة طبية وهذه مأثرة عظمتى أيضاً

الفصل التاسع والعشرون

عرب السودان

وبينما هم في الحديث بان لهم عيار عن بعد فطلعوا وبها وراءه فادا بفارس يسوق هجينه غاية جهده فأملوه فادا هو ملثم بكوفية ويظهر من هيئته أنه من أهل السودان فلما اقترب منهم أمسك زمام الهجين وسار سيراً حثيثاً فلما عاينهم حياهم فادا هو من صباط اسماعيل باشا وفد عرفوه فسألوه عن سبب مجيئه وحده في تلك الصحراء فقال انه آت من الخرطوم ومتوجه الى القاهرة بكتب الى العزيز من ولده اسماعيل

فسألوه عن الاحوال فقال ان جيودنا ساروا حتى افتتحوا الخرطوم وسار خفضت لهم الشائقية ثم سار اسماعيل باشا بجنوده حتى أتى حد فزعل فاكتشف معادن الذهب عبر أن الثوباء وشا بالعسكر فاضطر الى العود وقد تركته بحفات الخرطوم وحثت بالاخبار الى والده في القاهرة

فقال سعيد هل لك أن تخبرني اذا كانت حملة الارناؤط والمعاربة التي توجهت مؤحراً لامدادكم قد وصلكم . قال نعم فدوصات مند رمان وهي الآن قد احتلقت بجنود اسماعيل لان كثيراً من رحلها قد قتلوا في الحروب فألحق من بقي بجيش اسماعيل وهم قادمون الى جهاب شمدي لجمع الرحال وحباية الاموال بعد أن تركوا احمد بك الدفتردار بما بني من احمد في سنار

فاحب سعيد أن يسأله سؤالاً آخر فاعذر بعدم امكانه التأخر أكثر من ذلك خوفاً من فوات الوقت فودعه وسار

أما سعيد فوقع في اضطراب من حراء ذلك الخبر خوفاً على سيده أن يكون قد قتل في جملة من قتل بقي سائراً مدة طويلة وهو صامت لا ينطق ببنت شفه وادرك رفاقه ذلك فسألوه عن سبب سكونه فقال اني اتأمل بهذه الصحراء الواسعة التي مع خلوها من الماء شاهد فيها نباتات وأشجاراً كثيرة كلها في الادريو بها ماء النيل . فاحابه الرجل ان هذه الاشجار والاعشاب ترتوي من

ماء المطر في زمن الشتاء وتبقى عائشة في سائر الفصول فترعاها الجمال
أما سعيد فعادت اليه المواجس وجعل يتخيل سيده تارة مصاباً بطعنة
ومرضجاً وطوراً غير ذلك من انواع الموت حتى أسودت الدنيا في عينيه
وبينما هو في هذه التصورات وقفت القافلة للغداء والاستراحة لان الحر
كان قد اشتدت وطأته ولم يعد المسير ممكناً. فوقف سعيد متردداً بين أن يرافق
هذه القافلة كل الطريق أو أن يتركها ويسير على حدة خوفاً من الابطاء لان
التجار لا يمكنهم الاسراع في سيرهم وجهلهم مثقلة بالاحمال وهي ليست من نوع
الجمال السريعة

فجلس للاستراحة ومناولة الطعام فأكل مما كان قد احضره معه وشرب
شربة من الماء وجلس فاذا برفاقه قد توسدوا للقيولة . أما هو فجعل في ذهنه ان
تأخره دقيقة واحدة قد يترتب عليه موت سيده فهب جسمه وشعر كائنك صبت
عليه ماء مغلى فنهض للحال وركب هجينه وودع رفاقه معتذراً أنه لا يمكنه
الابطاء في الطريق مثلهم وأطلق لهجينه العنان في الصحراء جنوباً لابلوي على
شيء حتى أمسى المساء وكان الليل لحسن حظه مقمرأ فلم يبت إلا في آخره إذ
شاهد خياماً عن بعد فيها بعض العربان العابدة فاقرب من الحلة فناداه رجل
قائلاً بلغة تلك القبيلة « مين الزول » أي من هو الرجل فأجاب سعيد قائلاً
« موحد » أي مسلم فظنوه من قبيلتهم فقالوا « يا هلا بالزول » فتقدم اليهم
سعيد مسلماً بسلامهم المعتاد فسألوه عن قبيلته فقال انه ينحس قبيلة الشافعية
ولما أراد السفر في الصباح سأله الشيخ عن جهة مسيره بقوله « يا زول
انت مبجر والا مقبل » أي هل أنت سائر شمالاً أم جنوباً فأجابه « لا والله
مقبل يا زول » فقال له « تكوس شونو » أي هل على أي شيء تفتش فقال سعيد
« اكوس سيداً لي مرق مني في الليل الغبر » أي افتش على سيدي الذي تاه
مني في الليل الماضي

وحذراً من ان يمل القارىء لغة هؤلاء الانوام نجعل كلام الرجلين
باللغة العربية المعروفة عندنا فقال الشيخ لسعيد هل تريد ان اصحبك ببعض
رجالي يساعدونك في التفتيش عن سيدك . فقال سعيد ان ذلك غاية مرادي

ولكنني اخشى ان يكون سيدي قد سار الى ابي حمداي مسافة ستة او سبعة ايام من هنا فلا اظن انه يليق بي ان اتعب رجلك بهذا المقدار

فقال الشيخ مرحباً بك يا وجه الخير فان اسيادك من اصحاب المروءة ولا يليق بي ان اتركك ما لم ارسل معك بعض رحالي

ثم نادى « تيراب » فخصر بدوي دقيق البنية حاد العينين اسودهما صغير الانف اسود الشعر خفيفه صغير الفم والاذن منتظم الاسنان ايضاً دقيق الساقين ومع رقة جسمه تظهر عليه مظاهر القوة والنشاط وسرعة الحركة فلما وقف بين يدي الشيخ قال له سر يا بني برفقة هذا الرجل تفتشان عن سيده ومتى التقيتاه به اوصلهما الى قبيلتهما وتعال الي

فقال سمعاً وطاعة وركب هجينه وسافر في ركابه اثنان من العبيد وسار الجميع جنوباً اما سعيد فسر لنجاح مشروعه بمرافقة هذا البدوي لانه قد اصبح في مأمن من ان يضل عن الطريق ولكنه خشي ان يرافقه يوماً ثم يعود فاخذ يحتال عليه ليقى معه الى آخر الطريق فافتتح الحديث قائلاً يا تيراب ما هو اسم شيخكم قال تيراب هو والدي واسمه الشيخ ابو سرحان ثم بادره تيراب قائلاً وكيف تاه منك سيدك قال اريد ان اقول لك الحق قال تفضل

فقال سعيد ان سيدي هو ابن الامير ود علي وهو شاب يحب الفروسية ولما سمع بان العساكر المصرية تحارب في جهات الخرطوم وانهم قادمون الى جهات شندي أحب ان يذهب للانضمام الى بعض القبائل هناك لينقموا من اسماعيل باشا لانه قتل صديقاً له كان في بعض المواقع ولا شك ان هذا القصد ناتج عن قلة التبصر وكثرة الجهالة وقد حاول والده مراراً اقناعه فلم يقتنع حتى صباح أمس فانه خرج ولم يعلم به أحد ولم يرجع بعد فبعثني والده للفتيش عنه وأنا اظن انه سار نحو ابي حمداً قاصداً المئمة

فقال تيراب الافضل اذاً ان توجه توأ الى ابي حمداً فقال سعيد هذا هو الانسب على ما اظن . وكان ذلك غاية منى سعيد فانه أتى بتلك القصة لكي يسمع ذلك الرأي

وبالاختصار سار الاثنان يمدان المسير حتى وصلا بعد ثلاثة أيام الى محطة

مرات وهي المحطة المتوسطة في ذلك العظمور وفيها آبار من الماء غير العذب وفيها ينزل المسافرون للاستقاء وملء القرب لما بقي من الطريق الى ابي حمد فاستراحوا هناك واكلوا وشربوا وملأوا قربهم وساروا . وبعد بضعة ايام وصلوا إلى محلة ابي حمد على الشاطيء الشرقي للنيل آخر ذلك العظمور

فقال تيراب يظهر ان ابن سيدك لم نقف له على أثر فهل تظن انه سار الى المتعة
فقال سعيد يغلب على الظن انه سار الى هناك وإلا لكان يجب ان نلتقى به أو نسمع شيئاً عن خبره وعلى كل حال ارجو الآن ان تعود الى والدك وتقدم له عني وعن سيدي . زيد الشكر والثناء على معروفه ومتى رجعت انا الى القبيلة اعلم سيدي الامير الكبير عن معروفكم
فالح تيراب على ان يرافق سعيداً الى المتعة فلم يقبل خوفاً من انكشاف أمره

فودعه تيراب وعاد بخادميه إلى ابيه اما سعيد فانه عبر النيل الى البر الغربي ولم يعد امامه الى المتعة الا عظمور واحد يجب ان يسير فيه مدة قدر ما سار في عظمور ابي حمد غير ان الماء هنا موجود في آبار على الطريق اكثر مما في ذاك

الفصل الثلاثون

مدينة شندى والملك الممر

فركب سعيد هجينه بعد أن ملأ قربه ماء من البيل وسار قاصداً المتعة سراً سريعاً . وبعد مسيرة بضعة ايام وصل الى آبار جكدول في منتصف ذلك الطريق تقريباً فاذا هو مكان جبلي فيه مجتمع من الماء الشتوي عزيز وشرب وسقى جملة وملأ قربه وبات هناك ليلة وفي الصباح سار مراً بآبار ابي طليح بعد يومين وفي اليوم الثالث أشرف على المتعة وهي بلدة واقعة على

صعة السيل الغربية مقابل بلدة شندي وكانت هذه أكثر عمرانا من تلك ويدهما
يجرى السيل

ولما وصل المدينة دخل كواحد من أهلها وكان ذلك اليوم يوم الثلاثاء
وهو يوم سوق المتعة فوجد الناس مجتمعين في ساحة هناك يبيعون ويشتررون
ويتبادلون وفيهم الجزارون وقد دبحوا بقرة أو جملا وعلقوه في عمد شجرة
بحبل يبيعون من لحمه لمن يشاء بغير وزن ولا قياس وترى فيهم حاملي التسع
السوداني واللبن والريت والنمر وسائر لوازم البيوت والعادة في تلك البلاد
انهم يجعلون لكل بلدة يومين في كل اسبوع يقيمون فيها سوقا عمومية يأتي
اليها أهل البلدة وما جاورها من القرى يبيعون ويشتررون ويتفاوضون وكانت
سوق المتعة في يومى الثلاثاء والجمعة . فالراعي يعطي الفلاح عما يأخذ بدلا
منها حنطة أو تيمًا ويعطي زبدة ويأخذ بدلا منها تمرًا أو تيمًا والحياك
بادل بمنسوجاته مع الناجر القادم من المدن ومعه السكر والفهوه والارز
وما شاكل

ولا تقتصر تلك السوق على الفائدة التجارية فقط ولكنها تكون وسيلة
لمخاطبة والمداولة فيما هو جار من الحوادث العمومية فهم يغتصمون الفرصة في
أيام السوق لمطالعة الاخبار

فدخل سعيد بينهم كواحد من القرى المجاورة ودخل معهم بالاحاديث فسأل
عن حالة الجنود المصرية فقيل له انهم دوحوا البلاد وعن قليل يصلون شندي
لانهم عائدون اليها لجباية الاموال

وفي اليوم الثاني قيل له انهم على مقربة من شندي وفي عصر ذلك اليوم
وصل اسماعيل باشا ورحاله الى شندي فصبوا خيامهم وزل اسماعيل في قصر
معد لنزوله بالقرب من شجرة كبيرة خارج البلدة فناء الناس بحاجاتهم من
الماكل والمشرب وجاء كثيرون من أهالى المتعة الى شندي ينفرون بمشاهدة
العساكر المصرية فنزل سعيد في أحد القوارب حتى أتى معسكر اسماعيل
وجعل ينظر يمينا وشمالا ويتأمل في وحوه ضباطه وعساكره لعله يقف لسيده

على خبر وخاف أن يشتبهوا فيه فجاء بطبق عليه بيض وتمر ومضى بين الحيام مدعيًا انه أحد الباعة

وفيا هو في ذلك سمع لفظ الناس ثم رأى الملك النمر ملك شندي من قبيلة الشائفية قد جاء برحاله لملاقة اسماعيل باشا واخذ الناس يهرعون ليروا تلك المقاتلة فسار سعيد في جملة من سار وكان اسماعيل في لباسه العسكري وطربوشه التونسي وسراويل الازراك متكئا خارج القصر على مقعد سوداني (عنقريب) فوقه بساط عجمي وفي يده غليون يدخن به وحوله ضباطه ورجال معيته بين جالس وواقف

ثم اقبل الملك النمر فاذا به شيخ متوسط القامة خفيف شعر اللحية أسمر اللون كبير العينين حادها عليه القفطان الحريري وفوقه العباءة البيضاء البيضاء وعلى رأسه العمامة ويده الغليون وفي خدمته عدة رجال واحد يحمل له سلاحه من رمح وسيف وحراب وآخر ينقل له الغليون والتبغ وآخر غير ذلك لكنه لما اقترب من معسكر اسماعيل اعطى غليونه لحادمه وأمر رجاله ان يلبثوا بعيدن وتقدم هو احترامًا للباشا فلما دنا منه حيا التحية المعتادة حائكا رأسه ولمس يد الباشا وقبلها ثم وقف منتصبًا كل ذلك واسماعيل متكئ والغليون في يده لا يبدي حراكا احتقارًا له وبعد مدة أشار اليه جالس على الأرض . ثم اخذ الملك يرحب باسماعيل ويبدي له الخضوع وهو لا يزداد إلا كبرًا وعجرفة وبعد ان أتم ذلك الملك كلامه التفت اليه اسماعيل قائلا له انظر يا ملك اني جئت اليك لجباية الاموال الاميرية وجمع الرجال فيجب عليك ان تأتيني بما يملأ قاربي هذا من الفضة وتجمع لي الفين من الرجال في مدة خمسة ايام فوقف الملك النمر مسترحمًا وقال حيا الله الباشا من اين لنا هذا القدر من الفضة ونحن قوم مساكين فقراء

فاستوى اسماعيل على متكئه ونظر الى وجه الملك النمر عابسًا وقال قلت لك ذلك فلا تجادلني . فكرر الرجل قوله انه لا قبل له بجمع هذا المبلغ قال حسنًا نجعله عشرين الف ريال (نحو خمسمائة الف قرش) فشكا الملك من قصر المدة وقال لا تكفي لجمع هذا القدر من المال وهذا العدد من الرجال . فما

كان من اسماعيل الا انه ضربه بانبوبة الفليون على وجهه فاستشاط الملك عيظاً لكنه أظهر الخضوع وأضرع الشر

أما سعيد فلم يكن هذا المشهد ليشغله عن سيده ولكنه لم يكن يستطيع التقدم الى مجلس الباشا حيث يجتمع ضباطه ليفتش عن سيده بينهم لان العساكر كانت تمنع الناس من الاقتراب الى حيث كان الباشا والملك فلما رجع الملك التمر الى المدينة كانت الشمس قد مالت الى الغروب تخاف سعيد أن لا يسمح لاحد من اهل المدينة بالبقاء في المعسكر فصار مع من سار الى الشدى بجمعة ذلك الملك ولم يكن أحد يعرف حقيقته مطلقاً بل كان الجميع يخاطبونه ويحدثونه كاحد اهل القرى المجاورة وقد عزم أن يكر في الصباح لاستطلاع أمر سيده في معسكر اسماعيل باشا

الفصل الحادى والثلاثون

مقتل اسماعيل بن محمد علي باشا

فلما وصل الملك الى بيته جمع اليه بعض رجاله وعيناه تفدحان الشرر من شدة الغيظ فدخل سعيد متذكراً ووقف الملك بينهم وخاطبهم قائلاً ما معناه :

« يا معشر الشائقية ها قد رأيتم ما اصاب ملككم التمر في هذا اليوم من الالهانة بغير ذنب واتم تعلمون ان الالهانة لا تطاق فهل تحالفوني إذا اردت الانتقام من الذى اهانتني »

فاجابه الجميع : « لا » فسكت واختلى ببعض اصدقائه ثم خرج فعزم سعيد أن يذهب في الصباح التالي الى اسماعيل باشا ويخبره من التمر وذهب يطلب مكاناً يبيت فيه تلك الليلة

وفيا هو سائر رأى الناس حاملين اكياداً من التبن الى معسكر اسماعيل فظنه علماً للجمال فلم يبال ثم رأى الناس يتقاطرون نحو المعسكر فقال في نفسه

علم لاذهب لعلي اقف على خبر فسار حتى وصل المعسكر فادا بالملك النمر والباشا وضباياه قد جلسوا في بقعة وسط المعسكر يتمازحون ويضحكون وأمامهم حلقة من الرجال السودانيين ينفخون ويرقصون الرقصة السودانية وقد أدار الملك النمر ضرا من الشراب يكثر تعاطيه في السودان يقال له « المريسة » ويسميه أهل مصر البوزة وهو يصنع من متفوع الذرة ويشبه بطعمه وخواصه الجعة (البيرة) وكان النمر يعطي اسماعيل باشا وأهله مجلسه وهم يشربون حتى مضى معظم الليل كل ذلك وسعيد شاخص ينظر الى الناس ويتأمل في وجوههم فوقع نظره على رجل مقطب الوجه جالس في مجلس الباشا لم يكن يشرب من ذلك الشراب ولا يكثر للملك الالعب خلافا لرفاقه فانهم كانوا يقهقرون ويصرخون وكذلك الباشا

وأمل سعيد في ذلك الوجه فاذا عليه ملامح الكبر أكثر كثيراً مما يعهده بسيدته وهو مطرق في الارض ويده عليون يدخن فيه وينفخ متأففاً ثم خطرت له حكاية الامير وان سيده شاب قبل أوامه فترجح عنده انه سيده فكاد يطير من الفرح وهم ان يناديه من بين الجماهير ولكنه تجدد خوفاً من ان يقع عليه غضب اسماعيل باشا إذ لم يكن قد نسي ما اصاب الملك النمر من الاهانة فاراد التربص ولكن عواطفه لم تطاوعه فصار يرقص فرحاً والناس ينظرون اليه يظنه يرقص مع الراقصين فأخذوا يضحكون عليه فدخل في جملة الراقصين على أمل أن يتمكن بذلك من الاقتراب الى سيده وأخذ يتقرب شيئاً فشيئاً وادا بجميع من كان في مجلس الباشا يترنحون وقد لعبت سورة الحمر بهم فصاروا يرقصون أيضاً

أما سيده فكان لا يزال مطرقاً عابساً لا يبدي حراكاً إلا بالتدخين وكما فرغ غليون ملاً غيره

ثم نهض من بين الناس ودار من وراء مقعد اسماعيل فظنه سعيد ذاهباً في حاجة ولا يلبث حتى يعود ولم يكن يمكنه الوصول اليه لتوسط مقعد الباشا وحاشيته بينهما فتربص في انتظار عودته فطالت الغيبة وفي أواخر الليل شع اسماعيل باشا ورجاله فذهب كل منهم الى محل رقاذه وسار اسماعيل الى قصره

كل ذلك وسعيد لم يعد يشاهد سيده فاشغل باله . وفيما هو يفتش عنه رأى
 اللهيب يتقد والدخان يتصاعد من حة قصر اسماعيل وما حاوره من الحيم وهو
 التبن الذي كانوا قد جمعوه في مساء ذلك اليوم ولم يكن سعيد قبل ذلك عالماً
 بتلك المكيدة خاف على سيده أن يذهب فريسة النار قبل أن يعلم حياة امرأته
 فأسرع الى مكان اللهيب يفتش عنه ولما لم يجده جعل يطوف كالجبون ويبادي
 بعبارات مختلفة كان يقولها على غير هدى وكان يرى بعينه اشتعال اللهيب من
 جهة وسيوف الشائقية وحراهم من حة اخرى تعمل في رحال اسماعيل فسار
 نحو اليران وقد شعر السيف في يده إيهاما لرحال الملك التمر انه مثلهم عامل على
 قصدهم وفيما هو بقرب اللهيب رأى سيده خارجاً من حيمته مسرعاً نحو النار
 كأنه يريد أن يلتقي بنفسه عليها تخلصاً من الحياة فناداه سعيد : فف يا سيدي
 لا تقل بفسك ان سيدتي سلمى حية » وكان امين بك قد عين سعيداً هاجماً
 عليه في ري السودانين وظننه منهم فضربه صربة بالسيف على عنقه فسقط لا
 يبدي حراكاً وسمعه يقول : آتلتني يا سيدي انا عبدك سعيد »

فأراد العود اليه لينحقق الأمر فإذا بجماعة كبيرة هاجموا القصر بالحرا
 والسيوف والبنادق وكانت الحياة قد عزت عليه لما سمع ببقاء امرأته في عداد
 الاحياء خاف اذا ثبت أمام المهاجمين ان تعود العائدة عليه فلا يعود الى امرأته
 فطلب الفرار في عرض الصحراء حتى وصل الى مأمن جلس فيه يفكر فيما سمع
 وراء وهو يحسبه أضغاث احلام فندم على فراره بعير ان يتحقق حال سعيد
 فحدثته نفسه ان يعود الى مكان الواقعة لعالمه يستطلع شيئاً من احباره ولكنه
 رأى في رحوعه خطراً عليه وهو مع ذلك لا يأمل ان يستفيد شيئاً لان
 ضربته كانت قاتلة وتذكر ان سعيداً قال له قتلتي ياسيدي ونأسف كثير ولكن
 قد فتذكر ان سعيداً لم يقل له اين هي امرأته فازداد اسفاً ولما يئس من سعاد
 هام على وجهه يفتش على امرأته

الفصل الثاني والثلاثون

حصار عكا

فلترك الرجل يفتش عن امرأته ولترجع الى بيت الدين فنرى سلمى قد
يئست من وجود زوجها وقد مرت عليها سبع سنوات ولم تسمع عنه خبراً
فزال من ذهنها أمل الاجتماع به وكان غريب قد بلغ الحادية والعشرين من
العمر وتعلم الفروسية جيداً وسافر مع الامير بشير عدة مرار وحضر عدة
وقائع حربية أظهر فيها بسالة عظيمة حتى أجمع الجميع على محبته فكان ذلك
أكبر تعزية لوالدته وهو الى ذلك اليوم لم يعلم شيئاً عن والده الحقيقي

فاهتمت والدته بامر زواجه شأن كل الامهات فاخترت له ابنة فريدة
الاوصاف من العشيرة الشهاية وبعد ان صممت النية على خطبتها لابنها أرادت
ان تسأله عن رأيه . ففي ليلة من ليالي شهر تشرين الاول (نوفمبر) سنة
١٨٣١ نادته الى حجرتها وقصت عليه رأيها وامتدحت الابنة ما استطاعت ثم
سألته إذا كان يحبها فقال يا والدي اني احب الذي تحببته مع اني لا أعرف
الابنة لا اسماً ولا جسماً فانا واثق أنها تكون موافقة لي كثيراً ولكنني أرى
أن هذا الوقت ليس وقت رواج . فقالت وما المانع فقال ان والدي الآن في
انشغال بال واضطراب سياسي فلا نتجاسر على مفاتحته بهذا الامر فالاولى
ارجاؤه الى فرصة أخرى

فقالت سلمى وكيف ذلك يا ولدي وما الداعي لاضطراب الامير اخبرني
فقال غريب أنت تعلمين ان اماره والدي الامير بشير على لبنان تحت
ولاية عبد الله باشا والي عكا ولا يخفى عليك ان والدي لما توجه المرة الماضية
الى مصر وتوجهت أنا برفقته إنما كان غرضه من ذلك مساعدة عزيز مصر
على التماس العفو من مولانا السلطان عن عبد الله باشا المذكور فالتمس العفو
وعادت ولاية عكا اليه بعد ان كادت تخرج من يده فبدلاً من أن يقر بهذا

المعروف لوالدي ولمحمد علي جارها بخلاف ذلك فاصبح والدي ناقماً على عبد الله
باشا لكنه لا يمكنه التظاهر بذلك لانه تحت ولايته

أما محمد علي باشا والي مصر فلم يمكنه امساك غضبه لاسباب أوجبت زيادة
حقده عليه فبعث ابنه ابرهيم في حملة من الرجال لافتح عكا وقهر عبد الله
فكتب عبد الله الى والدي يطلب اليه ان يحشد الرجال ويأتي لنجده في
عكا وأنت تعلمين أنه لا يمكنه مخالفة الاوامر فبعث والدي الاوامر الى جميع
المقاطعات بلجج الرجال والتأهب للسفر . وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من
ابرهيم باشا من عكا يستدعيه اليه فوقع والدي في حيرة ولم يمكنه اجابة طلب
ابرهيم خوفاً من غضب عبد الله باشا ولا يريد رفض طلب ابرهيم باشا لأنه
قد سبق منه الوعد بمساعدته عند قدومه الى البلاد السورية ولذلك ترينه
لا يعي نفسه من التردد فلا يمكننا مكالمته في شأن الزواج الآن وهذه مشكلة
مستدركة

فاضطربت جميلة لذلك الحبر وقالت ما تظن انه يفعل يا ولدي
فقال غريب أرجح أنه يجيب ابرهيم باشا وفي نيته أن يسافر غداً من
بيت الدين في حاشيته والارجح انه يقصد عكا . ولا بد من التوجه برفقته
فصاحت جميلة لا يا ولدي مالك ولهذا المخاطرة

فقاطعهما غريب بالكلام قائلاً انظري يا والدتي اني قد صرت رجلاً والحمد
لله ولم أعهد فيك مثل هذا الخوف علي يوم كنت صبياً وسافرت الى بلاد بعيدة
فقلت ان ذهابك أول مرة لم يكن الى حرب وقد كفاني ما قاسيت على أثر
ذلك السفر . قلت ذلك ولم تقدر أن تمسك نفسها عن البكاء لتذكرها
حكاية زوجها

فتعجب غريب لذلك البكاء وقال ما الداعي يا والدتي الى هذا البكاء الآن
قالت ليس هناك داع يا حبيبي سوى اني تذكرت الخطر الذي وقعت فيه
هناك وما جرى لك من تعدي اللصوص . ثم لاح لها أنها لا يجب أن تظهر هذا
الجنين أمامه وندمت على ما فرط منها فقالت ولا تظن اني اخاف عليك من
الحروب فان الرجال خلقوا لمقاساة الحروب والارزاق والاعمار بيد الله .

لا أنا لا أخاف من ذلك ولا سيما انك ذاهب في جماعة من الابطال وفيهم
والدك البطل المغوار الذي تهابه الاسود وإذا صممت على السفر فبحراسة الله
وإنما أوصيك وصية واحدة وارحو ألا تنساها

قال غريب مريفي وأنا ولدك المطيع

قالت عليك يا ولداه بتقوى الله والاتكال عليه في السراء والضراء ثم مدت
يدها الى بطاقة صغيرة كتبت فيها بضع كلمات ثم طوتها ودفعتها اليه قائلة خذ
هذه البطاقة فقد كتبت لك فيها آية ذهبية ولا تفتحها إلا وانت في أشد الضيق
فقبل البطاقة ووضعها في جيبه وأغرورقت عيناه بالدموع ولكنه تجلد وأمسك
نفسه ولم يشأ أن يظهر الجبن لئلا ينتقد عليه

وفي صباح الغد أمر الأمير بشير بالاستعداد للسفر وان يكون غريب في جملة
المسافرين لأنه كان يحبه حباً عظيماً لما رأى فيه من نخوة الرجال والشهامة والهمة
والشجاعة فذهب لوداع والدته فودعها فقبلته وشجعته ولكن قلبها كاد يقطر
دماً على فراقه

فركب الجميع وساروا قاصدين عكا وفيما هم في الطريق لاقاهم فارس بيده
كتاب سلمه الى الامير ففضه فاذا به من عزيز مصر الى الامير بشير يتهدده
ويتوعده بالعقاب الشديد اذا كان لا يقدم الى عكا لمعاوضة ولده ابراهيم ومن
كلامه له « ان ولدي ابراهيم كتب الي انه استدعاكم الى صحراء عكا ولم تحضروا
فاما ان تفعلوا والا فاننا نخرب مساكنكم ونغرس في مكناها زيتونا »

وطوى الامير الكتاب وما زال سائراً حتى أتى صحراء عكا شمالي حيفا وحبل
الكرمل حيث معسكر ابراهيم فخرج للملاقاة الامير الالي بعسكره وبعض ضباطه
بالموسبق واطلاق البارود وفي جملتهم مصطفى بربر وحنابك البحري رئيس
الكتابة فدخلوا به المعسكر بموكب عظيم وكان ذلك هو المكان الذي عسكر
فيه بونابرت قبل ذلك الوقت بنحو ثلاث وثلاثين سنة فنزل الامير ومن معه في
خيمة خصوصية قرب خيمة ابراهيم

الفصل الثالث والثلاثون

عبد الله باشا والي عكا

وكانت عكا محصنة تحصيماً منيعاً وقد دافع حندها دفاعاً شديداً حتى امتنعت على ابراهيم أكثر من خمسة أشهر كانت الحرب في اثنائها سجالاً وكان غريب يفتنم فرص الهدنة ويذهب الى حوار تلك الاماكن للصيد والقنص حتى كان يصل أحياناً الى سهول شفا عمر يصطاد من عرلاتها وحجلاتها وغيرها من الطيور

وكانت حنود ابراهيم باشا منظمة على النظام الحديث الذي وضعه بونابرت وكان يخالطهم كثير من الاتراك والارناؤط والمعارنة من نقابا الجود القديمة وكان الضباط يخرجون في اوقات الهدنة للصيد والنزهة

ففي صباح يوم من أيام شهر ك ١ (ديسمبر) سنة ١٨٣١ من تلك السنة خرج غريب من خيمة الامير بشير باكرأ وكان البرد قارساً فالف بثيابه وصعد الى مكان عال وأخذ ينأمل في تلك الصحراء عند سمح ذلك الحبل وقد اصبحت بعد ان تساقطت عليها الامطار في الليل العابر كأنها ممسولة وقد صما الجو وصفت السماء واشرقت العزلة على تلك الأنحاء فاعكست اشعتها على سطح البحر المتوسط فنلون سطحه الواناً بديعة ويتجلى ذلك السكون رفقة الطيور وقد خرجت من اعشاشها فيجيبها البحر بنلاطم الامواج . فسر غريب بذلك المنظر كثيراً واشتاق نفسه الى الركوب والطواف في تلك الجهات المجاورة والركوب يعلو في تلك الصحراء الرملية والرمل احمى ما يكون بعد المطر فركب جواده وسار ولم يخبر احداً بذلك على ان بعض الحند رآه وعرفه . فلما خرج من العسكر اوعل في تلك الصحراء شرقاً كأنه يريد أن يركض الفرس فخرج شمالاً ازاء باب عكا واحذ يتفرج بمشاهدة اسوار تلك المدينة او القلعة وحصونها وخنادقها ثم رأى امامه آثار قناطر قديمة كان الماء يجري بها الى عكا

من مسافة اربع ساعات وفيما هو يتأمل عرج به جواده نحو المدينة وهو لا يدري فما أحس الا وهو بالقرب من بابها الشرقي ولم ينتبه الا عند ما سمع طلق الرصاص عليه فادار شكيمة جواده وطلب الصحراء تخلصاً من الموت لكنه لم يخط بضع خطوات حتى أصيب جواده برصاصة اوقعته صريعاً فاراد الفرار على قدميه فلم ينج لان عدداً من حرس عكا خرجوا عليه بالسلاح وهو لم يخرج رجله من الركاب فاراد الدفاع فلم يستطع الى ذلك سبيلاً فقبضوا عليه وساقوه مخفوراً الى المدينة فادخلوه من ذلك الباب وهو كأنه في حلم فدخل وهو فيما علمت من اللباس الفاخر وملامح الامراء وقد أرسل كوفيته من رأسه على كتفيه وجمدانه المزركش بالقصب يسطع فوق قفطان من الحرير صنع دمشق وقد تقلد السيف وتمنطق بالطبنجات والخنجر وكانت مشيته تدل على أنه ليس من عامة الناس وكان أهل عكا ينظرون الى ذلك الاسير نظرة التعجب ويتحادثون فيما بينهم عمن عسى أن يكون هذا الشاب . أما هو فكان ماشياً غير مبال كأنما هو داهب الى بيته حتى أتوا به الى القلعة فدخلوا به على عبد الله باشا فاذا هو رجل ربة اشمت الشعر جالس على مقعد يدخل الشبق مقطب الوجه عريض اللحية وعلى رأسه الطربوش العثماني وبين يديه رجال دولته وقد عرض الحسام على فخذه ويظهر من وجهه انه في حال ارتباك واضطراب وغضب شديد فلما دخل غريب الغرفة عرفه عبد الله باشا فناداه منتهراً

أأنت ابن الامير بشير خائن الدولة والامة

فقال غريب نعم انتي ابنه ولكنني لا أرى مسوغاً لك أن تصفه بهذه الصفة يا سعادة الوالي ولعلك اذا التقيت بابي يوماً تعرف حقيقة الامر فقال عبد الله باشا بعثت اليه أن يقدم الي برجاله فأنحاز الى عدونا فاذا ظفرت به علمته الطاعة والامانة . سبقتي انت عندنا رهناً حتى يقضي الله بيننا فقال غريب لا تكثر من التهديد والوعيد فان ما نسبته الي والذي يعد احجافاً منك بحقه فانه لم يقصر من الخدمة في بعض مصلحتك ألم يكن هو الذي انقذك من غضب الدولة وكم ساعدك في اخضاع رعيتك اما انحياز الان الى الجنود المصرية فلعل له عذراً عليه يعلمه ولا أعلمه

فقاطعه عبد الله باشا قائلا : لا عذر له الا خيانة دولته وقد قلت لك اني سوف أعلمه الامانة ان ظفرت به وما أنا بناقم على ابرهيم بقدر تقمقي عليه فما هكذا تكون الامانة والشهامة

فقال غريب ليسمح لي سعادة الوالي أن أرد قوله وأبريء والذي من هذه التهمة ولعلكما اذا اجتمعتما وتفاوضتما تعلم على من تصدق اقوالك فان الحيانة ليست من شأن الامير ولكن

فابتدره الباشا منتهراً كأنه يريد الوقوف ونادى بأعلى صوته : سالم آغا خذ هذا الى السجن مغلولاً ، فتقدم اليه رحل في لباس الضباط طويل القامة جميل المنظر سنه نحو الثلاثين ازرق العينين أشقر الشعر وفي يده سيف مسلول وبجانبه جنديان بالبنادق وأشار الى غريب أن يمشي فامتنع غريب والتفت الى الوالي قائلا وهو ينتفض من شدة التأثر : أعادتكم ان تكبلوا ابناء الامراء وتقودوم الى السجن مهانين . وأنا لا أنتقل من هنا حتى تمك أعلاي فاسير بنفسي الى حيث تشاءون ،

وصاح عبد الله باشا بأعلى صوته يا للحسارة أتعارض أوامري وتمتنع عن الذهاب خذوه حالا من امامي والا قطعت رأسه بهذا السيف فتقدم غريب وهو لم يرتعد ولم يؤثر فيه كلام الوالي شيئاً وقال : « أظن أنك تروعي بهذا التهديد فما أنا خائف من الموت

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تموت جباناً فاني لا أنالي بالتهديد والوعيد مادمت بريئاً ولكن عار عليك أن تجرد علي سيفاً وأنا أعزل مكبل فاذا شئت ان تحرب نفسك فمك اغلالي وليحكم الله بيننا بالقسط ولا تستنكف من ذلك فانك تبارز أميراً ،

فعجب الجميع لهذا الشاب وأعجبته جسارته وثبات جأشه حتى انهم خافوا عليه من غضب الباشا وأشفقوا أن يأمر بقتله حالا ولا سيما الضابط الذي كان تقدم ليسوقه الى السجن فتقدم اليه وأمسكه بذراعه وضغط باصبعه عليه كأنه يقول له اقصر من هذا الحديث فذلك خير لك

أما الوالي فاشتد غضبه وم بضرب غريب لكنه رأى الضابطة قد ساقته

الى السجن فسكت على أنه لو أطاع غضبه واتبع هوى نفسه لما أبقى على غريب
لكسه كان شاعراً بضعفه عن مقاومة الجنود المصرية وكان عالماً أن الدائرة
ستدور عليه حتى انه كان قد طلب قبل ذلك الحين المفاوضة في أمر الصلح
جاءته أوامر من الاستانة تشدد عزمته فامسك عن المفاوضة في انتظار البعثة
على انه كان يعلم في الباطن أنه لا يفوى على مقاومة تلك الجنود العظيمة التي
دوخت الاقطار السودانية والغربية والرومية وهي فيما هي عليه من النظام
الجديد غاف اذا قل غريباً أن يثير عليه انتقام الامير بشير فاذا وقع في يده
ولا شيء ينقذه من القتل ولذلك أمسك من نفسه ورضي أن يؤخذ من أمامه

الفصل الرابع والثلاثون

ثق بالله ولا تبال

فاخذ رئيس الشرطة غريباً مخفوراً الى سجن عكا المشهور وهو مظلم
ينصل اليه بعدة درحات تحت الارض وفيما هم في الطريق أخذ غريب يفكر
في صروف الحوادث وهذا الاتفاق الغريب الذي جر عليه هذا البلاء العظيم
فاظلمت الدنيا في عينيه ولا سيما عند ما تذكر والدته وما يكون من حزنها
عليه اذا أصابه سوء ثم طرقت دهنه ما أوصته به عند وداعه وتذكر تلك
البطاقة التي اعطته اياها وأوصته أن يقرأها في وقت الشدة والضك ثم يده
الى جيبه وكان قد حل وثاقه واستخرج تلك البطاقة فقبلها وفتحها والحمرء
يظرون اليه وأخذ يتأمل فيها فدا فيها هذه الآية الذهبية « ثق بالله
ولا تبال » فتشدد قلبه وابسط وجهه كأنه كان في شدة ونجا منها وقد
لاحظ ذلك سالم اغا رئيس الشرطة لانه كان بجانبه فحدثه نفسه أن يسأل
غريباً عن تلك البطاقة وكان قد احبه ومال اليه منذ رآه ومن ثم لم على
طرفه عنه

فتقدم الى غريب قائلاً : ما هذه الورقة التي فتحتها

قال هي ورقة لا فائدة لك فيها

فقال الأغا نعم أعلم ذلك وانما أريد أن اطلع عليها
فقال عريب ليس فيها شيء يوجب تحجبها لئلا ترا ثمة عدي لانها من
أعز الناس الى فضحك الأغا وقال لعلها عطية حبيبتك فحجل عريب
لذلك وقال لا وانما هي عطية من وادتي فاراد الأغا أن يعيد السؤال ورأى
أنه قد وصل الى السجن فادخل غريباً ذلك السجن المظلم وصرف من
كان واقفاً هناك من الشرطة ودخل السجن معه لكي يعد له مكاناً
يمكث فيه

أما عريب فاستعظم الدخول الى ذلك المكان المظلم وكاد الشرر يطبر من
عينيه ولم يكن معه إلا الأغا فسار به الى حجرة مضيئة ليس فيها أحد واحلسه على
حصير هالك وجلس هو بجانبه فتعجب للطف ذلك الاغا وخشي أن يكون
بدسية سرية لكي يقتله فصار ينظر اليه بظر الحذر غير أن ملامح وجهه لم
تكن تظهر عليها دلائل الحياة

ولما جلس تقدم الأغا الى عريب بصوت ضعيف أن يطلعه على تلك
البطافة فقال عريب وما غرضك بها قال لا غرض لي سوى اني احب
الاطلاع على نساخ الوالدين فاعطاه البطافة فلما فرأها وقف شعر رأسه من
النأر وقال بالحقيقة ان هذه الوالدة لحوهرة ثمينة ولا عرو فاما رى
ثمرة بطنها ونسج تربيتها . أما عريب فكان يحمل ذلك اللطف والدعة على
الخدبة لانه قلما ظهر بين رجال والي عكا اناس في مثل هذه العواطف
الشريفة

ثم قال الاغا لعريب قد آن وقت الغداء ولا بد من انكم تحتاجون الى
طعام فقال عريب ان نفسي لا تطلب طعاماً ولا شرباً فاخذ سالم اغا يخفف
عنه ويعزبه الى أن قال يظهر لي انك لم تقاس عذاب السجن ايها الامير
فكل واشرب واهأ وعسى أن يمن الله بالفرج من الآن الى المساء فلمح
غريب من ذلك أن الرجل يقصد مساعدته فبدأ روعه ولما جاء الطعام أكل
ولكنه عاد وتذكر والدته فانقبض وجهه فقال له سالم اغا ما نال سيدي الامير
منقبض الوجه

فاجاب غريب لا تظن يا اخي انى خائف من الموت لا وحياء رأس ابى
وانما خوفا واضطرابى على والدتي التي ادا علمت بسوء اصابني لا تعيش ساعة
من بعدي واذا كنت احب الحياة فمن اجلها وجبا براحتها

فتبسم سالم اغا قائلا طب نفسك يا عزيزي فاني عون لك على النجاة من
هذا الضيق فقال غريب وكيف يمكنك ذلك وقد امرت ان تحافظ على
في السجن فقال الأغا ما لنا وللأوامر فانا نفعل ما نشاء فقال غريب اكون
اذا قد سببت لك خيانة مصلحتك فاني افضل البقاء هنا والموت على أن اسبب
لك ارتكاب مثل هذه الخيانة . فعجب الأغا لهذه العواطف الشريفة وازدادت
عجته له وم اليه وقبل عارضيه وقال لا لا يا سيدي ان ذلك لا يمد خيانة لاني
أكون قد أنقذت بريئا من يد ظالم فان عبد الله باشا رجل مستبد غشوم
لا يعرف الصداقة ولا تظن اني أطعن به مع انه رئيسي بل انني رأيت منه امورا
أوجبت نفوري منه وميلي الى الجنود المصرية

فقال غريب يا للعجب ألا تكون قد خرجت عن طاعة مولاك وخنت
وطنك فضحك سالم آغا وقال لا يا سيدي لأن عبد الله باشا ليس مولاي ولا
أنا من اهالي عكا ولا اهالي سوريا وإنما التقادير ساقني الى هنا بحكم الاتفاق
وسأقص عليك قصتي في فرصة أخرى ان شاء الله

ثم قال غريب والآن ماذا نفعل فقال الأغا أنا أتعهد لك بالخروج من هذا
السجن في هذا الليل بكل امان الى معسكر ابيك ولكنني اريد منك أن تؤمني
على حياتي امام ابراهيم باشا ولا بد لي قبل كل شيء من ان تعاهدني على الصداقة
فنكون اخوين متحالفين فانا أتعهد باخراجك من هذا السجن وأنت تتعهد
بحفظ حياتي عند وصولنا الى معسكركم بكل أمان والآن سأخرج من هذا
السجن لأهيه ما يلزم وسأتيك بعد الغروب . قال حسنا . فخرج الأغا وبقي
غريب وحده يتأمل في ذلك الرجل وهو لا يزال في ريب مما قاله ثم نظر الى ذلك
السجن الخفيف وما صدق ساعة عودة الأغا فلما رجع رأى غريبا في انتظاره
بفروغ صبر فقال له ها أنا قد أعددت كل ما يلزم فهل أنت مستعد للفرار
فقال يسؤني وايم الحق ان اخرج من هذا المكان فرارا ولكن ما الحيلة

ثم سار الأغا ممسكا بيد غريب متمسكا في ذلك الظلام فوصل الى باب مقفل ففتحه ودخل به الى حجرة داخلية في اعلى جدار من جدرانها طاقة عليها شبك الحديد فقال سالم آغا لغريب قف عندك قليلا وجاء بسلم من إحدى زوايا الغرفة وصعد به الى تلك النافذة وما زال يعالج الحديد بأداة في يده حتى قطعه وسحب قضيبين من قضبانها فصار في الامكان خروج الانسان منها وربط بالحديد الباقي حبلين وارخاها الى الخارج

فقال سالم آغا تفضل يا سيدي على هذا السلم فصعد واطل من الطاقة فادنا هو عند البحر والامواج تلمطم جدار السجن وتدوي في هدوء ذلك الليل فقال سالم لا تضع الوقت انزل رجلك من النافذة اولا ومضى انزلت يديك امسك بالحبل ولا تخف فان قارباً ينتظرنا هناك فيتلقاك البحارة بسلام فاخرج عريب نفسه من النافذة مبتدئاً برجليه جاعلاً صدره لجهة الحائط فلما قرب من انزال يديه فطن الى الخطر المحقق به فيما اذا انقطع به الحبل وسقط في الماء لانه لا يحسن السباحة ولكنه تجلد وتشجع فلما صار كله خارجاً امسك بالحبلين معاً ونظر الى اسفل الحائط فاذا بقارب فيه اثنان من البحارة وقد رأى في خلال ذلك الظلام اشارتهما اليه بالنزول فاحذ يمسك هذا الحبل ويترك ذاك وهكذا حتى قرب من القارب وبعد قليل رأى سالماً ناراً فلما صار الاثنان في القارب اخذ البحارة يمحذفون بسرعة بما امكن من الهدوء حتى داروا من وراء سور المدينة وابتعدوا عن الخطر فدنوا من الشاطئ ونزلوا واذا بجوادين ينتظرانها كان قد اعدهما سالم آغا فركبا وما زالا حتى اتيا معسكر ابراهيم باشا

الفصل الخامس والثلاثون

سالم آغا

اما ما كان من امر الامير بشير فانه لم يكن علماً بخروج غريب في ذلك الصباح ولكنه لما جاء وقت الغداء ولم يحضر سأل عنه فقيل له ان بعض الجند

رآه خارجاً على جواده با كراً فلج في السؤال عنه فلم يقف له على أثر فث رجاله
يفتشون عنه في تلك الصحراء فعادوا ولم يعلموا عنه شيئاً فغضب الأمير غضباً
شديداً واصبح النوري عينيه ظلاماً ولم يعد يستطيع صبراً فركب جواده
وركب معه بعض رجاله وساروا يفتشون عن عريب في جهات الجنوب ظناً
مهم انه توجه للنزهة في جهة حيفا وجبل الكرمل فقصوا بضع ساعات فلم يقفوا
له على أثر فعادوا الى المعسكر فاذا بعريب قد عاد ومعه سالم أغا وجلسا في خيمه
الامير فدخل الامير فسلم عريب على أبيه فسأله عن سبب غيابه فاخبره بما جرى
وعر به بسالم أغا وطلب اليه ان يذكر معروفه لأنه انقذه من الموت

وقال لسالم أغا انك غمرتنا بفضلك ولا بد لنا من مكافأتك فاطلب ما تشاء
فوقف الأغا وتقدم كأنه يريد تقيل يد الامير فامسكه فقال يا سيدي
اسألك أن تتوسط لي أمام ابراهيم باشا ليقبلني في جيشه لأنني كنت قبلاً من
جنده وخرجت بغير إذن منه . فوعده بذلك وأكرمه غاية الاكرام على نية
أن يأخذه في صباح الغد الى خيمة ابراهيم باشا من أجل ذلك

فباتوا تلك الليلة وفي صباح اليوم التالي سار الامير بشير وولده عريباً
وسالم أغا الى خيمة الباشا فدخل أولاً الامير وولده ثم استأدنا لسالم اغا فاذن له
ودخل فلما شاهده ابراهيم باشا عرفه وسأله قائلاً : أأنت سالم اغا

قال نعم يا سيدي اني عبدك سالم

قال الباشا وأين كنت بعد رجوعنا من حرب المورة فاني منذ نزولنا في
مصر لم أعد أشاهدك قط ووطننت انك أصبت بسوء

قال سالم لا يا سيدي لم أصب بسوء قط وإنما جئت الى عكا أفتش عن ضائع
لي وأثمت فيها

قال الباشا ويا للعجب من أن يكون لك ضائع هنا وقد جئت معنا من
بلاد اليونان كأنك من أهل تلك البلاد فكيف تقول أن لك ضائعاً في
هذه الجهات

فنهتد الأغا وقال هذا هو الواقع يا سيدي وقد جئت الآن في صحبة سيدي
الامير طالباً العفو عن زلتي

فقال الامير بشير اعلم يا سعادة الوزير ان هذا الرجل قد صنع معروفاً وأنقذ غريباً من الموت وقص القصة عليه ثم همس في أذنه ان بقاء هذا الرجل معه يفيدته كثيراً لأنه يستطلع منه أخبار العدو . فقال الباشا لا بأس قد عفونا عنك ولكن عليك أول كل شيء أن تخبرني عن حالة عكا ومن فيها من الجنود وما هي مقاصد عبد الله باشا

فوقف سالم آغا على قدميه ثم جثا أمام الباشا قائلاً يادني لي سيدي ان ذلك لا يمكنني فقد كفي اني خرجت من المدينة سرّاً وأخرجت معي أسيراً كان يجب أن أحافظ عليه في السجن وقد خالفت بذلك أوامر رئيسي وأما اطلاع سعادة الباشا على اسرار المدينة فان الامانة وصدق الخدمة تمنعاني من ذلك . فعجب الامير بشير لتلك الشهامة أما ابراهيم باشا فلم يعجب لأنه كثيراً ما شاهد منه مثلها في حروبه بارض المورة لكنه قال له أنت في الاصل من حندنا وكأنتك بذلك خدمت مصلحتك القديمة . فقال العفو يا سيدي اي لا أحب مصلحة الجواسيس ولا يمكنني أن أتعاطاها قط فلا يسعني أن اخبرك شيئاً عن حال المدينة مهما كلفني ذلك والامر لسعادتك

فتبسم ابراهيم باشا وقال لا بأس يا سالم فقد عودتني مثل هذه الشهامة مذ كنت في عمارية المورة ثم نادى اركان حربيه وأمره أن يجعل سالماً في عداد الضباط وان يعود اسمه الى الجيش . فقبل سالم يد الباشا وخرج الى المعسكر فقال الامير بشير لابراهيم باشا حقيقة اني لم أشاهد مثل هذه الشهامة قط فتبسم الباشا قائلاً ان هذه ليست المرة الاولى التي عرفت فيها ذلك فاول مرة عرفته فيها منذ خمس سنوات تقريباً في نافرين بالمورة من بلاد اليونان

فلا يخفى على سعادتك اني توجهت بعارة بحرية بأمر الباب العالي لمحاربة المورة على أثر ثورة اليونان على الدولة في سنة ١٨٢٦ بينما كانت عمارتنا راسية في ميناء نافرين ونحن بين هجوم ودفاع على تلك المدينة جاءنا هذا الرجل في قارب رافعاً علماً أبيض ولما وصل الينا سألتناه عن غرضه فقال انه من جنود اليونان وقد جاء مسلماً وان تسليمه غير مبني على خوف أو خيانة

ولكنه يود البقاء معنا ربنا نعود الى مصر ولما رأته يتكلم العربية تعجبت من حاله وسألته عن حكايته فاعتذر أنه لا يمكنه اطلاعي عليها فاردت الاستفهام منه عن قوة اليونانيين ومقاصدهم فكان جوابه انه لا يمكنه افشاء ما أتمن عليه من الاسرار وان يكن غير يوناني النزعة غير أنه قال ان الشهامة تقضي عليه بكتان ما يعلمه فتهددناه بطرق مختلفة فلم يفه بكلمة فتعجبت من شهامته ووافقته على طلبه فبقي معنا حتى قضت الاحوال بعودنا الديار المصرية فرجع معنا وبعد وصولنا الى الاسكندرية بقليل لم أعد أراه وكنت دائما أفتكر به وأود بقاءه بين عسكري حتى رأته الآن على ما شاهدتم منه . فوصى الامير بشير ابراهيم باشا وصية خصوصية بمساعدته الى أن قال أنك اذا فعلت ذلك انما تكون فاعله معي

الفصل السادس والثلاثون

غرائب الاتفاق

وفي أوائل سنة ١٨٣٢ لما كتب محمد علي باشا الى ولده ابراهيم أن يفوض الى الامير بشير معاطاة احكام ايلة صيدا وان يكون تصريح جميع المسلمين وأصحاب المقاطعات عن يده رأى غريب أن وجوده هناك لم يعد يأتي بفائدة فطلب الى الامير أن يسمح له بالعود الى بيت الدين فاذن له فركب في جماعة من رجاله وسار بعد ان ودع صديقه سالم اغا وبعد مسيرة يوم ونصف وصل مدينة صور فلم يشأ النزول في المدينة ولكنه أراد البيت عند رأس العين قبل المدينة بسحو نصف ساعة وهو مكان فيه مياه غزيرة تفور من تنور قد بني حولها فانحصرت فيه وهناك بساتين تسقى منها واحة تدور بها . فنصبت لهم الحيام هناك وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل والبساتين مخضرة في أول الربيع والجو صافيا على أثر وابل غسل الارض ونقى الجو فترجل غريب عن جواده وسار يتمشى في تلك البساتين ترويحاً للنفس بعد أن أمر من معه بنصب الحيام وتهيئة الطعام وسار برفقته أحد اتباعه فشهد عن بعد شخصاً عليه عباءة

قديمة فقدم نحوه فاذا به شيخ طاعن السن في يده عكار وقد أرخى شعر رأسه الشائب على كتفيه وكانت لحية ملء صدره وتلوح على وجهه لوايح السكابة فتأمله فاذا به ماش وهو مطرق لا يلتفت يمينا ولا يسارا فتعجب من حاله وحدثته نفسه ان يسأله عن أمره وباداه قائلا :

الى أين يا حضرة الشيخ

فاتبه الشيخ كأنه هب من رقاد ووقف ينظر الى عريب ثم عاد الى الاطراق وسار

فاعاد غريب السؤال قائلا ما باللك لا ترد على جوابا ألا نعلم ان المسير في هذه الارض غير مباح بدون استئذان

فالتفت الشيخ مغضبا وقال اني من عبيد الله اسير في أرض الله فما باللك ولهذا المعارضة

فتعجب غريب لهذا الجواب وتقدم الى الرجل وأمسك بيده فنفر منه مغضبا وهول عليه بالعصا فقال غريب في نفسه إن في عقل الرجل اخلا لا فالاولى أن آخذه بالتأني أما تابع غريب فأمكنه بيده قائلا تأدب يا رجل واعلم أنك تخاطب ابن الامير بشير

فبهت الشيخ ورفع عينيه الى غريب وتأمله رهة ثم أطرق الى الارض ولكنه صار يرتجف حتى وقعت العصا من يده فتأمله عريب فتوسم فيه شحسا يعرفه فبهت مفكرا لعله يتذكر تلك الصورة ثم أوقف تابعه عن الكلام وتقدم الى الشيخ بكل هدوء وقال له أتريد أن تخبرني عن اسمك

فقال الرجل لا بل أرجو أن تقول لي أنت ما اسمك

قال أنا الامير غريب بن الامير بشير وأنت من أنت

فرمى الشيخ بنفسه على غريب وكأنه أراد النكاح ولم يستطع وصارت شفتاه ترتجفان ومد يده الى كوفية غريب يريد نزعها فأراد خادم عريب منعه فلم يستطع فلما وقعت الكوفية عن رأسه رنا بنظره الى حبين غريب ولمسه عند أثر الضربة التي كان أصيب بها في الصحراء بمصر

فتذكر غريب تلك الايام وفطن الى أن هذا الرجل هو الذي أنقذه من

أيدي اللصوص فسادى بأعلى صوته هل أنت الامير سليمان فلم يستطع الشيخ جواباً ولكنه أوماً اليه برأسه إيجاباً . فصرخ غريب أهلاً وسهلاً بسيدي ومنقذي من الموت وطفق يقبل يديه وأمر خادمه فجاءه بالماء فرشه به وأجلسه وأخذ يحادثه ويخفف عنه حتى سكن روعه

فقال له ما الذي جاء بك الى هذه الارض بعد هذا الزمن الطويل وما الذي جرى لك

فتأوه وبكى ولم يبد جواباً فاستأنف الحديث فقال اين هو والدك الامير بشير قال هو في عكا برفقة الجنود المصرية وعما قليل يلحق بنا الى بيت الدين . فقال الشيخ هل هو بخير قال نعم ولا بد انه سيسر كثيراً بمشاهدتك فان لك علينا فضلاً كبيراً هيا بنا الآن الى الحيام لنبيت هذه الليلة وفي الغد نركب معاً الى بيت الدين ونبقى هناك ريثما يعود والدي فيسر بمشاهدتك . فامتنع أولاً فالج عليه حتى رافقه الى رأس العين وهناك سأله أن يغتسل ويغير ثيابه قال لا يا ولدي ان ثيابي لا أغيرها وانما لا بأس من الاغتسال فغسل ثم مد السباط فاكلوا وكان غريب في غاية السرور لهذا الاتفاق لانه كان يشعر بثقل الجمل الذي كان عليه لذلك الرجل الذي انقذه من مخالب الموت وقد ترك لذلك أثرًا في جبينه

وبعد الطعام جلسوا لتناول القهوة فاراد غريب مفاتحة الشيخ ثانية بحكايته فقال إن حكايتي لا احكيها الا لوالدك فلم يراجعها ولكنه لم يعد يعرف كيف يكرمه وخطرت في باله والدته فقال اني مسرور جداً بلقياك ياسيدي وانما الفرح العظيم سيكون لوالدتي الهى كثيراً ما تذكر فضلك وتثني عليك وبعد يومين ستشاهدك ولا بد من انها ستسر بك سروراً عظيماً

فقال الشيخ ان ذلك كله لحسن نيتكم وأما أنا فلم افعل شيئاً وانما الفضل الاكبر علي لسيدي والدكم ولكن ... ثم خنفته العبرات فتعجب غريب لهذه المظاهر لانه لم يكن يعلم شيئاً من الأمر الذي دار في شأنه كما علمت . وفي صباح اليوم التالي ركب غريب بعد أن أركب الشيخ وجعل في خدمته رجلين وسار الركب حتى أمسى المساء وفي الصباح التالي ساروا ولما اقتربوا من بيت الدين

سار المبشرون الى السراي يخبرون أهلها بقدوم الامير غريب فخرج الرجال لملاقاته أما والدته فكانت في انتظاره عند باب الدار

الفصل السابع والثلاثون

لقاء بهيج

فوصل الموكب قبل الغروب بقليل فدخل غريب ممسكا بيد ذلك الشيخ حتى وصل الى صحن السراي الداخلي فادا بوالدته في انتظاره عند باب دار الحرير فلما وصل قبلته ولم تنتبه الى الشيخ فادخله معه الى قاعة الاستقبال فاضطرت والدته ومن معها من نساء السراي أن يمتنعن من الدخول معها فنادى والدته قائلا تعالي يا أماء وقبلي يد هذا الشيخ الذي انتقذ ابك من الموت في صحراء بني سويف فدخلت جميلة القاعة وركبتها ترتجفان وحالما شاهدت الرجل وتأملته صرخت قائلة « امين امين » أنت حي ووقعت مغشيا عليها فذهل غريب لذلك الصوت وأمر بالماء وماء الزهر ليرشوها خوفاً عليها وتقاطر سائر أهل السراي على سماع ذلك الصوت وكان ذلك الشيخ اكثر دهولا من الجميع لكنه حالما سمع لفظ أمين صرخ « سلمي سلمي » أنت هنا ووقع غائبا عن الصواب . فبهت الحضور كافة ولكنهم شغلوا برش ماء الزهر عن الاندهال وبعد قليل افاق الاثنان واخذ كل منهما يتأمل بوجه الآخر كأنهما اصديا يجنون ثم اعادا النداء وضم احدهما الآخر وتعانفا فزاد ذهول الناس ولم يكن احد من الحاضرين يعرف الحقيقة الا امرأة الأمير فأمرت كل من في القاعة بالخروج خارجا إلا غريباً ووالدته ووالده . أما غريب فكان كأنه في حلم لانه لم يكن يعرف أن ذلك الشيخ والده ولا أن اسمه امين بك ولا أن له والدًا غير الامير بشير ولا أن والدته تدعى سلمى فاخذ منه الاندهاش كل مأخذ وكان يظن في أول الامر أن والدته فعلت ذلك لشدة تأثرها من تذكر الخطر الذي كان قد أحدق به وكيف ان هذا الرجل انتقذه منه ولكن لما نادى كل منهما الآخر باسم غريب عنده لم يعد يعرف كيف يؤول ذلك المنظر وخاف على والدته فاخذ

يخفف عنها . أما هي فلم تستطع امساك نفسها عن البكاء الممزوج بالضحك من شدة الفرح ثم قالت لزوجها لماذا لا تتمل ولدك عريباً . فتركها للحال وم الى غريب صارخاً « ولدي ومنية كبدي غريب هل أنت ولدي ولم أعلم بعد ، وأخذ يقبله ويعانقه وعيناه تذرفان الدموع وبكى غريب مشاركة لها وهو في حيرة من جميع ذلك حتى ظن نفسه في منام

فقدت اليه امرأة الامير بشير قائلة لا تذهل يا ولدي ولا تعجب مما رأيت فأنا والدك ليس الأمير بشير وإنما هو هذا الشيخ ققبل يده وأجلس لنقص عليك الفصة وإنما اجلسوا قبل كل شيء . وسكنوا روعكم جميعاً لشكر الله الحي الازلي الذي جمع شتانكم وهو قادر أن يحيي رميم عظامكم فجلس الجميع وأخذت امرأة الامير تقص على غريب حكاية والده باختصار وهو صامت يكاد لا يصدق أنه في يقظة فلما انتهت من حديثها نهض غريب ثاية وقبل يدي والده وقد تعجب لما علم من حكايته

ثم أراد امين بك أن يسأل سلمى عن ولدها سليم فأشارت اليه أن يبقى ذلك الى وقت آخر اخفاء له عن غريب . وبقي الجميع صامتين برهة ثم جاء وقت العشاء وبعد مناولة الطعام ذهبت سلمى وزوجها وولدها الى حجرتها ثم سألت زوجها عن كيفية وصوله اليهم وكيف دارت به الاحوال فقص عليها الحكاية حتى انتهى الى كيفية ذهابه الى الافطار السودانية طلباً للموت لقنوطه من الوقوف على مكان اقامتها الى أن حى لها كيفية قتله سعيداً الى ان قال :

فبعد ان صرته انتبهت وتأملته فاذا هو لا حراك به وتذكرت قوله انك في قيد الحياة فصارت روعي عزيزة علي بعد ان كنت اعرضها للسيف والنار فطلبت الفرار من عمل الواقعة حتى وصلت الى مأمن فجلست احدث نفسي بما كان وهو كأنه حلم لدي فكنت تارة اكذب غيظي وطوراً اعود فاشعر بحقيقة الواقعة ولما ترجع لدي ان ما سمعته من سعيد كان في يقظة تكدرت جداً لقتله بيدي وبكيت عليه بكاء مرّاً . فبادت سلمى : « واحسرتاه عليه انه كان خادماً اميناً بل صديقاً وفيّاً ، ولم تستطع امساك دموعها ثم عاد زوجها الى الحديث فقفاً ثم تذكرت ما قاله لي فلم استنجز شيئاً صريحاً لاني

لم أوكد الا قوله لي وانا ملق بنفسي الى النار ، لا لا تقتل نفسك فأنت سيدتي سلمى حية ، وكان السيف مسلولا بيدي وكان عليه ثياب السودانين والسيف بيده فظننته آتيا لقتلي فضربته ضربة واضمها كات القاضية ولم اسمع كلامه الا بعد ان نزلت بالسيف على رأسه فلم يعد يمكنني امساك يدي فالتفت اليه فرأيت مضرجا بدمائه فاذا هو سعيد والهي عليه وأسفت وندمت حيث لا ينفع الندم وكان يودي أن أنفجس أمره لعل فيه رمقا خال العدو بيننا . فترجح لي أنك في قيد الحياة ولكي لم أعلم اين مقرك ولا كيف اتصل الى معرفته . وكنت قد تحققت انك لا في مصر ولا في سوريا ولا في ما مررت به من بلاد السودان فوقع في حيرة وأسفت لانني لم أمت قبل عجيء سعيد بذلك الخبر اد أصبحت بعده في اضطراب عظيم فحدثني نفسي أن أطوف الدنيا كن زهد فيها لعل الله يجمعني بك فسافرت الى بلاد الحبش وبلاد العرب وكل من رأيي يحسبني درويشا وقصيت في تلك السياحة تسع سنوات حتى سقم جسمي من الحزن والتعب فاشفقت أن اموت قبل ان اراك ففلب في نفسي لاذهبن قبل موتي الى البلاد التي أخذتك منها لاشتم التراب الذي جباب منه فسرت على سواحل سوريا حتى التفتت بحبيبي عريب أول أمس بالهر من صور على الحالة التي شاهدي فيها ودار ما دار بيني وبينه وحاء بي الى ها ولا تعجبي لما يظهر علي من دلائل العجز والشيخوخة ما كرا فان الاهوال التي قاسيتها قد أنهكت جسمي وشيتني قبل الأوان

كل ذلك وعريب في ذهول تام حتى لم يكدي يصدق أنه في لحظة ونعجب لغرابة هذا الاتفاق وكيف أن نجائه من الموت في صحراء بني سويف كانت على يد والده الحقيقي وهو لا يعلم

ثم التفت الى والدته قائلا كيف استطعت أن تحجبي عني هذا الأمر كل هذه السنين . فقالت يا ولدي حبيبته في أول الامر لامرئين أولا لم أر فائدة من اطلعك على وفاة أبيك في مذبة القلعة لانا كننا نظن انه دبح في جملة من دبح هناك وثانيا اني كنت أود كتمان أمري عن الناس كافة حتى عن الامير بشير فهو لم يعلم ذلك الا بعد عودته من مصر وقد كان ذلك فوق ارادتي . وأما

الرجلان الوحيدان اللذان كانا يعلمان السر فهما خادمنا المرحوم سعيد ورئيس الدير

أما بعد أن علمت بوجود والدك في قيد الحياة في مصر فلم أخبرك خوفاً من أن لاتسمح التقادير بوصوله إلينا فاكون قد سببت لك حزناً بلا جدوى فتركتك على اعتقادك بأنك من أولاد الامير بشير على أمل أننا اذا ظفرنا بوالدك اخبرناك الحقيقة والا بقي الامر مكتوماً عنك فنشكر الله القادر على كل شيء لفضله وكرمه فقد رد ضالتنا وجمعنا بسيدنا وملاذنا وها قد شرحت لك حقيقة الحال

الفصل الثامن والثلاثون

فتح عكا

وما زالوا في مثل هذه الاحاديث حتى انقضى شطر من الليل وم لا يعلمون ولا يشعرون بنعاس وانما كانوا مستدفئين في غرفتهم يسمعون عصف الرياح والزواج والثلوج المتساقطة والرعود القاصفة فقالت سلمى أظن الافضل لنا ان نذهب الى فراشنا إذ قد مضى معظم الليل ولم نشعر بالنعاس ولن نشعر ولو مضى كله ولكن اجسادنا تحتاج الى رقاد وفي صباح الغد نجتمع وتم حديثنا إن شاء الله فوافقاها على رأيها وذهب كل منهم الى فراشه مطمئناً إلا أمين بك فانه كان لايزال مضطرب البال على ولده سليم فبكر في الغد الى حجرة زوجته وحده وسألها عن حكاية ولدها فشرحت له حكايته فأسف وبكى فقالت له أنى لا أزال كاتمة ذلك عن غريب لئلا أحزنه بدون جدوى فقال لها حسناً فعلت بورك فيك من امرأة فاضلة

ثم استيقظ غريب وجاء الى والديه وقضوا ذلك النهار بالاحاديث وبعثت سلمى الى رئيس الدير ليشارك معها بالفرح فسر كثيراً

ومكث الجميع بفرح وسرور في انتظار رجوع الامير بشير لعلهم انه يسر كثيراً بمشاهدة امين بك والتقاءه بزوجته وولده فلما عاد الى بيت الدين

واطلع على الامر تعجب لذلك الاتفاق وشاركهم بالفرح غير أنه كان مرتبك الافكار من جراء الاحوال السياسية وغضب الدولة العلية عليه لمساعدته الجنود المصرية حتى كتب والي حلب الى اللبنانيين يهددوهم ويأمرهم ان يختاروا والياً عليهم غير الامير بشير فاتخذ الدروز مع جنود الدولة وقامت الحرب بينهم وبين نصارى لبنان سجلاً فحصلت عدة مواقع في دير القمر وزحلة والمثني وعزمت الدروز على الاجتماع في حمانا ضد الامير ليشغلوا ابراهيم باشا عن قتال عسكر الدولة في حمص

وكانت عكا الى ذلك الحين لم يتم فتحها لأنها امتنعت على الجنود المصرية أكثر من خمسة اشهر

وفي ٢٧ مايو (ايار) سنة ١٨٣٢ امر ابراهيم باشا جنوده ان يهجموا على عكا دفعة واحدة وأطلق عليها النار الدائمة ففتحها عنوة ودخل اليها بجيوشه وأطلق الامان لعبد الله باشا فسلم له فلما اقبل عليه صاغه وطيب قلبه وطمنه على دمه وعرضه وسار به الى قصر البهجة ثم ارسله بحراً الى والده في الاسكندرية فلما وردت البشارة الى بيت الدين بذلك نهض الامير الى عكا لتهنئة ابراهيم باشا بالفتح فطلب غريب مرافقته فقال لاحاجة يا ولدي بدهابك الى هناك فالاولى ان تبقى مع والدك هنا أو أن تخرج به للترهة أو السياحة بل الافضل لكم البقاء هنا لأن البلاد قائمة علينا وقد أصبح اعداؤنا كثيرين فاحشى ان يكون عليكم بأس من جماعة الدروز وانما يمكنكم الخروج الى الجهات القريبة لترويح النفس ريثما أعود

فلما رجع من عكا أخذ يتأهب لملاقاة ابراهيم باشا في دمشق لأنه كان قد سار لمحاربته فأخذ معه ولديه خليلاً وأميناً فاراد غريب مرافقته فمعه قاتلاً له « ان وجودك هنا اولى فانا على كل حال نحتاج الى من يحافظ على بيتنا » فاستصوب الرأي ولكه ركب معه لوداعه مسافة ساعتين فقال له الامير يكفي يا ولدي فارجع الى والدتك ووالدك فرجع على جواده ونفسه تحدته بمرافقة الامير للحرب وكان غريب راكباً جواداً أررق عليه سرج مفضض وعلى رأسه الكوفية والعقال وعلى كتفيه برنس ابيض يغطيه ويغطي ظهر جواده

واما الجواد فكان من اجود الخيل الاصيلة بثني به مشية العروس مع وعورة المسالك في تلك الجبال الصخرية وكان غريب قلما يعجب بنفسه ولم يكن همه بعد ملاقة أبيه الا خدمته وراحته
وكان في أثناء عودته من تشيع الامير يفكر في وسيلة تمكنه من ذلك

الفصل التاسع والثلاثون

خطر جسيم

فر بقصر جميل كان قد شاهده مراراً ولم يدخله فأخذ يتأمل به لافراده عن القرية ولما يحدق به من الاشجار التي معظمها من التين والرينون والكرم والصنوبر ينخلها حقول من الكرم فانشغل بتلك المناظر وبينما هو غارق في هذه التأملات سمع صوتاً يناديه من جهة ذلك القصر « بالاك يا امير غريب اوع لنفسك » فالتفت لجهة الصوت فلم ير أحداً ولكنه سمع صوت وقع جواد مسرع وراءه فالتفت فادا برجل ملثم منقض عليه برمح في يده يريد طعنه به فاستل غريب سيفه بأسرع من لمح البصر وضرب ذلك الرمح فقطعه نصفين وهجم على ذلك الفارس وهو لا يعلم من هو فصاح فيه من أنت يا خائن فلم يجبه ولكنه اخرج من قريوزه فرداً نارياً يريد اطلاقه عليه فانتقض عليه غريب وأمسك ذلك الفرد بيده نخرج الطلق في الهواء فتقاطر من وراء ذلك الفارس جماعة من الفرسان جميعهم ملثمون فصرخ فيهم غريب بقلب لا يهاب الموت « ما غرصكم مني يا لئام أظنون اني خائف عديدكم » قال ذلك وهجم بسيفه فضرب أحدهم على رأسه فقضى عليه وضرب الآخر فاصابه ما أصاب رفيقه ولكنهم تكاثروا عليه حتى تعبت يده من الضرب وأصيب بفربة في ذراعه اليسرى . فدامت الواقعة نحو نصف ساعة حتى اصبح غريب في خطر وكاد يعتمد الى الفرار فسمع صوتاً يقول له « لعينيك يا أمير غريب لا تبال بهؤلاء الخائنين الغادرين » واذا بفارس ملثم خرج من تلك البساتين وقد جرد السيف

وهجم على هؤلاء الفرسان فاشد قلب عريب وتشدد وهجم عليهم حتى در هؤلاء بعد ان قتل منهم ثلاثة

فعاد غريب وهو مذهول لحية ذلك الفارس الملم ودنامنه يريد ان يعرفه فادا به قد ادار شكيمة جواده نحو ذلك القصر بعد أن أوماً الى غريب مودعاً فماداه غريب بالله عليك يا أخي أن تقف لأكيك فلم يجبه فتعجب غريب لذلك واشتد ميله لمعرفة الفارس وسار في أثره فهمز ذاك جواده حتى دخل الحديقة فتجزل بأسرع من لمح البصر فتعقبه غريب الى الحديقة فأوقفه الخدم قائلين ما هو عرض حضرتك قال غريب أريد مواجعة صاحب المنزل قال أحدهم هو ليس هنا فقال لا بأس فاني أريد مواجعه هذا الفارس الذي دخل امامي الآن فقال الناطور لم يدخل فرسان الآن ويظهر ان الطرق تشابهت عليك فقال غريب لا شبهة عندي في ما أقول لأنني رأيت الفارس يعني داخلها هذه الحديقة بجواده . فعالطه الرجل وكان عريب قد نسي حرجه في دراعه لشدة تأثره من هذا الامر ولكنه عاد فاحس به خفاف اذا طال أمره ولم يفصله ويعالجه ان يضر به فقال للرجل هل تعلم انك تحاظر ابن الامر بشر فبهت الرجل وتقدم الى غريب قائلاً العفو يا سيدي اني لم اعلم ذلك فامسك بركاب الخواد وأرله ودخل به الى ذلك البيت وأصعده الى دور علوي ومن هناك الى قاعة مفروشة بأحسن ما يكون من الفرش المين فقال غريب لا حاجة لي بكل ذلك وإعما أريد منك قليلا من الماء لاعسل جرحي وقطعة فماش لاربطه . نخرج الرجل ليأتي بما أمره به فبقي غريب في تلك القاعة يتأمل بها وبحكاية ذلك الفارس بعد ان شرع في كشف ذراعاه لغسل الدم عنه وادا بمناة مقبلة على الغرفة كأنها حورية من حور الجنان عليها ثوب بسيط الري أبيض ناصع وهي طويلة القد رشيفة الحركات مع رزانه ووقار عياها سودوان كبيرتان ولونها قمحي وشعرها أسود حالك وقد ضفرتة وأرسلته على ظهرها وكتفها وتنجلي على عياها ملامح البساطة والكمال مع ما هي فيه من عصابة الشباب . فلما رآها أطرق خجلا وعلا وجهه الاحمرار لأنه كان مكشوف الذراع فابتدرته قئنة لا تؤاخذني يا سيدي على مجيئي اليك بدون استئذان ولا سابق معرفة خلافاً

لعوائدنا وإنما قد أخبرني الخادم انك مجروح الساعد وقد ذهب ليأتيك بما يلزم لتضميده وأنا الآن وحيدة في هذا البيت فلم أر بداً من الحجيء لأعينك على ذلك فرفع غريب نظره اليها وقد ذهل لحسنها ولطفها وشعر بخفقان قلبه وكانت هذه أول مرة شعر بها غريب بمثل ذلك الخفقان فشكر فضلها قائلاً اني ممتن لفضلك أيتها السيدة اللطيفة ولكنني أسف لتحملك هذه المشقة بسببي وما أحسن التقادير التي ساقني الى مشاهدتك واللقاء بك . قال ذلك وقلبه يخفق وأعضاؤه ترتجف ثم جاء الخادم بالماء فغسلت ذراعه ولفتها بالعصابة وكان غريب في أثناء ذلك غارقاً في بحار المواجس وهاج به الوجد كثيراً وكان يشعر عند ما تمس يدها يده وهي تضمد الجرح كأن مجرى كهربائياً جرى بينهما وهي في كل تلك المدة لم ترفع نظرها اليه ولا نظقت بكلمة واحدة فكان الاثنان صامتين والقلبان يتكلمان

الفصل الأربعون

أول الحب نظرة

فلما انتهت من الضماد جلست على مقعد تجاه غريب وأخذت ترحب بقدمه وتلاطفه بالكلام أما هو فكان كأنه غائب عن الصواب ثم شدد عزيمته وحاول اخفاء ما به ولكنه لم يقدر أن يرفع نظره الى الفتاة الا عندما تخاطبه أو يخاطبها لأن الحياء كان يمنعه من ذلك كما كان يمنعا ثم ابتدراها بالحديث قائلاً : أتريدين أيتها السيدة أن تخبريني عن صاحب هذا البيت فقالت الفتاة انه يا سيدي غائب الآن وقد سافر في هذا الصباح مع سيادة والدكم الى دمشق قال غريب نعم ولكن هل ترين ان تخبريني عن اسمه

قالت اسمه الامير سعيد

قال أليس هو من عشيرة بني شهاب

قالت نعم يا سيدي

قال وهل أحد من أولاده الآن ههنا

قالت ليس هنا من أولاده أحد سوى هذه الفقيرة إذ لبس له أولاد غيري
قال أحسن بك يا سيدي والآن أريد أن أسألك سؤالاً آخر وإما أخشى
أن أكون قد كثرت من التطفل على أبي في حال من الاندھال تدفعني إلى
كثرة السؤال فهل تعذريني على كثرة تظفلي . قالت العفو يا سيدي سل ما تشاء
قال كنت في ضيق حتى كدت ادنو من الخطر فخرج من هذا القصر
فارس اتقذني من الموت وكان ملثماً فلم أعرفه ولما أردت سؤاله عن ذلك لم يجني
بشيء فاقنيت أثره فادأ به قد دخل هذا البستان ثم رأيه ترجل ودخل
هذا القصر

فاطرت الفتاة برأسها إلى الأرض وعلا وجهها الاحمرار ولم تبد جواباً
وأخذت تسلي نفسها بثني الحراف نوحها بين أناملها . فارتاب غريب بهذا المنظر
وندم على ذلك السؤال بعد ما قالت له انها وحيدة وليس في البيت الآن احد
من الرجال

فلستأنف غريب الحديث قائلاً اعذريني يا سيدي لأنني سألت سؤالاً ربما
لم يكن يليق بي أن أذكره فأسألك الصفع والمعدرة
فرفعت رأسها وأجابته قائلة عفواً يا سيدي فالك لم تقل الا كل ما هو
لائق وحدير بان يقوله شاب مهذب نظيرك

فجعل غريب من هذا المذبح وأطرق
فقال الفتاة أما سؤالك عن الفارس الذي خرج من هذا البيت لمساعدتك
ثم عاد اليه فاجيبك عليه في فرصة اخرى اذا قدر لنا الاجتماع مرة ثانية
قال غريب وقد هاجت عواطفه اذا كان اجتماعنا لا يعود ثانية الا بمعركة
مثل التي دعت اجتماعنا هذه المرة فحبذا المارك

فسكتت الفتاة ولم تبد جواباً

وبقي الاثنان صامتين مطرقين لا يسديان حراكاً ثم ذكر غريب والديه
بغته وخاف ان يستبطأ والشمس قد مالت نحو الغروب ثم خطر له أيضاً
أن وجوده مع هذه الفتاة في ذلك القصر منفردين ربما أدى إلى شبهة تضر
بالفتاة فنهض مستأذناً فنهض لتشييعه فلس يدها مودعاً فدعت له بالسلامة

وانما قالت له « الاتخش أن يعود هؤلاء الاشقياء ثانية فقال لها لا بأس علي بادن الله. فخرج من البيت وكأنه قد نسي شيئاً عزيزاً عليه هناك فاذا بالخدم قد اعدوا له الجواد فركب وسار قاصداً بيت الدين وقبل أن يتوارى عن القصر نظر اليه فاذا بالفتاة تنظر اليه من احدى نوافذه فسار وهو مشغول الفكر بها واحس احساساً داخلياً لم يكن أحس به من ذي قبل ورأى في نفسه ميلاً شديداً اليها والى المعيشة معها ثم تذكر أن والدته ذكرت له فاة كانت تريد أن تزوجه بها قبل سفره الى عكا وخشي أن لا يعيل قلبه الى الخي اختارتها والدته فيبقى مقيداً هنا وعدم ذلك ربما تقوده عواطفه الى مخالفة أمر والديه حال كونه يود الطاعة التامة لهما وسار وهو في مثل ذلك من التردد تتقاذفه أمواج الفكر حتى وصل بيت الدين فاذا بوالديه ينتظرانه بفروغ صبر فلما وصل لاقياه وقبلاه ورأياه متغير الوجه وعليه مظاهر الارتباك

الفصل الحادى والاربعون

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

فسألته والدته عن سبب ذلك فاجبرها بمن لاقاه في الطريق وبما جرى له معهم حتى ذكر الفارس الذي خرج لمساعدته من ذلك القصر وكيف انه عاد ولم يعرف مقره فشكرت والدته الله تعالى على نجاته

ثم قال لها وفي هذا المساء أقص عليك بقية قصتي فقلقت لذلك ولكنها صبرت الى المساء فانفرد بها وقص عليها ما دار بينه وبين الفتاة من الحديث الى أن قال واعترف لك يا والدي اني قد علفت هذه الفتاة لما رأيت فيها من الكمال واللطف والركة والجمال واطنهما كانت سبب نجاتي من أيدي اللصوص ولكنك قلت لي عن فتاة أخرى فهل أعرفها يا ترى

فقلت سلمى انظر يا ولدي انا لا أريد أن اكرهك على ما لا تحب وانما أقول لك أن الزواج من أم الامور ولا بد من التبصر قبل التصميم عليه وانا

لا أعرف هذه الفتاة وربما تكون موافقه وأما تلك فاني أعروها حيداً وهي من عائلة بني شهاب ووالدها ليس له غيرها

فقال غريب وهذه قلت أنها وحيدة أيضاً وهي من عائلة بني شهاب
 قالت ولكن كونها وحيدة ليس من الفضائل المدودة وأما تلك فابنة أمير
 من الأمراء المقربين لدى الأمير بشير وقلما يسير في سفرهم إلا ويستصحبه معه
 فقال غريب وهذه كذلك وما هو اسم والدها
 قالت الامير سعيد

فصرخ غريب هذه هي بعينها
 فقالت ولكن هذه لا يتيسر لك مكالمتها ومشاهدتها فاتها تحجب عن
 الغرباء

قال نعم ولكن قد قضت عليها الضرورة بالظهور أمامي والضرورات
 تبيح المحظورات
 فقالت اين هو ذلك القصر
 فلشار اليه وعين مكانه

فقالت يظهر أنك مصيب بقولك فان الفتاة هي بي عينها ولكن أنت
 قلت أن فارساً خرج من ذلك البيت وعاد اليه وليس في ذلك البيت رجال هناك
 فقال لا أعلم ولما سألتها عن ذلك الفارس قلت سأخبرك عنه في فرصة
 أخرى ولم أفهم المقصود من ذلك وأخشى أن تكون هي ذلك الفارس

قالت وانا لم أفهم مقصودها وانما يقرب من الواقع كونها هي التي نادتك
 وحذرتك أولاً ثم خرجت بنفسها ملثمة لمساعدتك فاني أعلم أنها تحسن ركوب
 الخيل وشهامتها كشهامة الرجال

فسر غريب لذلك لانه نجا مما كان يتردد فيه وانخلت المشكلة على أهون
 سبب

فعند ذلك استدعت زوجها وجلس الثلاثة يتفاوضون في الامر فاقروا على
 أن يخطبوا الفتاة من ايها حالما يعود من ذلك السفر
 أما غريب فلم يعد يستطيع صبراً على بعدها وصار يحس انه مشتاق الى

رؤيتها فان تلك النظرة كانت كافية لارتباط القلبين ولكنه كان يمسك نفسه عافضة على كرامة الفتاة فلما عاد أبوها من ذلك السفر وعاد الامير بشير ايضاً تفاوض أمين بك والامير في شأن خطبة الفتاة من ايها فتوقف الامير بشير عن الجواب فارتاب أمين بك في ذلك ورغب اليه أن يجيبه صريحاً

فقال أن الفتاة تربت أحسن تربية وهي كاملة الاوصاف غير أنني لا أدخل في أمر خطبتها فإذا شئتم فاخطبوها انتم من ايها وأما انا فلا اكلمه قال أمين بك وقد كنت أعلم أن سعادتك تود ذلك الرجل بنوع خاص وهذا مما شدد رغبتنا في طاب الابنة

قال الامير كنت كذلك وأما الآن فقد بلغني عنه ما أوجب النفور بيني وبينه فلا يمكنني مخاطبته في شأن خطبة أو زيجة

فقال أمين بك فاذا كانت الحال كذلك فنحن في غنى عن تلك الفتاة لاسيما وأن غريباً لا يعرفها ولم يرها إلا مرة واحدة بحكم الاتفاق ولم يكن أمين بك يعلم مقدار ما كمن في قلب ولده من المحبة للفتاة فقال ما قاله

فلما رجع الى امرأته وولده تكدرا جداً لان والدة غريب كانت تحبها محبة عظيمة وكذلك غريب كما علمت ولكن لا يمكنها مراجعة الامير بشير ولا سيما بعد أن جراه أمين بك في ذلك

أما غريب فاظلم الضياء في عينيه ووقع في ارتباك عظيم ولم يعد يعلم كيف يفعل في الامر فأن كلا الامرين صعب ولكنه تجلد وقال في نفسه « ما لا تقدر على قضائه فالزمن يقضيه » وأخذ يصبر نفسه منتظراً باباً للفرج فلاح له أن أفضل وسيلة انما هي مصالحة الامير ووالد الفتاة فاخذ يسعى سرّاً في ذلك وهو في خوف من أن تخطب الفتاة لغيره

الفصل الثاني والاربعون

من ويل الى أعظم منه

وبقي ذلك الأمر مكسوماً حتى جاء ابرهيم باشا الى بيت الدين لجمع سلاح طائفة الدروز سنة ١٨٣٢ وقد كتبت الامر الى جميع أعيان الدروز في ذلك وأن يطيعوا الاوامر ويسلموا سلاحهم وخيم ابرهيم باشا خارج در القمر . وكان عربب يحاول المرة بعد الاخرى مشاهدة القناة ولما كان يستطيع ذلك وانما كان يسعى لمصالحة أبيها مع الامير بشير

فاتفق انه التقي يوماً بابيها وكان يعرفه وكان الرجل يحب عربياً لكثرة ما سمع عنه وكان التقاؤهما عصر يوم في البساتين فاخذوا باطراف الحديث حتى أظهر الامير سعيد سبب النفور الذي بينه وبين الامير بشير فقال غريب ياسيدي لدي سر أريد أن أسره اليك قال قل ما بدا لك

قال غريب اني كنت اتفقت مع والدتي أن تطلب ابنتك إذا شئت أن تكون رفيقة حياتي ولما فاتحنا الأمير بشير أظهر لنا منه انه لا يعارض في طلب الابنة ولكنه لا يظلمها هو وانا لا يلبق بي ان آتي عملاً لا يرضاه الامير وقد احببت السيدة ابنتكم حباً شديداً ورأيتها مناسبة لي واحبتها والدتي كذلك ورأينا الواسطة الوحيدة لفض هذا المشكل ان تصطحب حضرتك مع الامير فتأوه الامير سعيد وصمت هنيهة ثم قال انظر يا ولدي لو سبقت وخطبتني بهذا الامر منذ يومين لكان كل صعب وان الاحلاف الذي بيني وبين الامير عرضي ولا يصعب زواله وانما هناك مشكل أصعب من ذلك فاخرج قلب غريب وقال وما هو ذلك المشكل

قال ان ابرهيم باشا بعث إلي مساء أمس وطلب لسان وكيله حاكماً بك

البحرى ان أخطب ابنتي لاحد كبراء ضباطه المقربين منه كثيراً ولم يسعني إلا
الاجابة فوعده على أن أشاهد الرجل ووعدني انه سيأتيني به الى بيتي هذه
الليلة وهذا سر وأرجوك كتمان

فاضطرب غريب وكاد يتميز من الغيظ وثار في صدره نائرة الانتقام وكان
يشعر انه كلما تعقدت مسألة زواجه بتلك الفتاة زاد حبه لها فقال للامير سعيد
والآن ما الواسطة ليل الأرب قال يا ولدي ليس لدي واسطة وانا اكثر ارتباكاً
منك ولا يمكنى رفض أمر ابراهيم باشا ومن يخبرني عن أصل هذا الرجل وفصله
والبنت عزيزة عندي لانها وحيدتي

فأر غريب في أمره وأطرق هنية ثم قال للامير سعيد متى يأتي هذا
الرجل اليك قال هذه الليلة بعد الغروب بقليل قال حسناً وخرج يحدث نفسه
في ماذا يجب أن يفعل لحل هذا المشكل وبعد التردد مدة ساعتين صورت له
الغيرة والمحبة أن يتعرض لذلك الرجل في طريقه تلك الليلة ويهدده أن يرجع
عن مقصده فلهذه يخاف فيرجع وكانت نفسه تحدته أنه اذا مانع في الرجوع
يقتله لكن الشهامة كانت تردعه عن قتل نفس بريئة وخلاصة الامر أنه كان
يتنازع عاملان مختلفان عواطفه من جهة وعقله من جهة أخرى ثم قر رأيه
على أن يجب داعي عواطفه ويلقى الرجل ويهدده في الطريق ويرى ماذا
يكون منه

الفصل الثالث والاربعون

ازاحة اللثام

فلما كانت الساعة الأولى بعد الغروب لبس غريب ثيابه وأراد الخروج من
البيت فسألته والدته عن جهة مسيره فقال انه ذاهب لزيارة أحد اصدقائه في
معسكر ابراهيم باشا فقالت يا ولدي ولكننا رأينا ما حل بك أمس وأنت وحدك
قال نعم ولكن لكل زمان دولة ورجال ألا تعلمين ان وجود ابراهيم باشا
في هذا الجوار كاف لمنع مثل هذه الحوادث قالت سر بحراسة الله

فسار وقد اخفى سلاحه تحت ثيابه ولما خرج من بيت الدين تنكر ووقف في الطريق المؤدية الى بيت الأمير سعيد قرب البيت ليعارض الرجل قبل دخوله اليه خوفاً من أن يخطيء فيعارض رجلاً غيره . حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الغروب رأى شخصاً ماراً وحده وهو يريد أن يعرج الى بيت الأمير فتأمله فإذا عليه لباس الضباط المصريين وهو السراويل المعقودة تحت الركبتين والزنار الاحمر العريض وعلى رأسه الطربوش التونسي فلما رآه غريب خفق قلبه وارتعدت فرائصه من شدة التأثر وتقدم اليه مسلماً فرد السلام

فقال غريب هل تشعل لي هذا الغليون (وذلك أول سبل التحرش) فقال الضابط مرحباً بك واخرج زناداً وصواناً اشعله وقدمه لغريب ليثمل غليونه فاغتنم غريب تلك الفرصة وتفرس في الرجل بنور الصوفان المشتعل فإذا به وجه رجل يعرفه قبل ذلك الوقت ولكنه لم يستطع أن يميزه فقال غريب الى أين أنت ذاهب في هذا الليل

فأجابه مالك ولهذا السؤال وهل حرت العادة هما ان تعترضوا الناس في مسيرهم

فقال غريب سألتك ذلك لغرض لي سأطلعك عليه حالما تحييني على سؤالي قال الرجل ولكنني لا أرى مسوغاً لهذا السؤال واعلم قبل كل شيء انك تخاطب ضابطاً من ضباط ابرهم . فاشتبه غريب في صوت الرجل كأنه يعرفه فقال أنا اعلم ذلك واذا كنت لا تريد أن تحييني على هذا السؤال فاخبرني عن اسمك

قال اسمي سالم آغا

فقال غريب سالم آغا ! سالم . أهلاً وسهلاً بأخي وحيبي أنت هو الذاهب في هذا الطريق

قال نعم وهل أنت الامير غريب

قال نعم

قال ما الذي جاء بك الى هنا وما غرضك من التعرض لي

قال غريب قد كان ذلك سهواً مني لأني أنتظر بعض الناس وقد اشتبهت
فيك فإني أنت ذاهب
قال إلى بيت الأمير سعيد شهاب اليس هذا بيته قال نعم هذا هو أتريد أن
أوصلك إليه قال سالم كما تشاء
ولما علم غريب أن الضابط المهود إنما هو سالم آغا صديقه سكن جأشه
وحمدت فيه عاطفة الانتقام وصمم على أن يتمازل عن طلبه ويساعد سالمًا
على خطة الفتاة
فسار الاثنان حتى وصلا الباب فطرقاه خفاء الأمير سعيد لاستقبالهما فلما رأى
الاثنين معاً عجب غاية العجب وحشي أن يترتب على ذلك أمر ذو بال ولكمه
أحنى تلك الأفكار وأدخلهما غرفة الاستقبال جلسا فقدمت لهما الشبقات وأمر
بالقهوة وكان الاثنان مشغولين كل الوقت بالسلام والحديث فيما جرى لهما في
أثناء بعد أحدهما عن الآخر كل ذلك والأمير سعيد مذهول لا يقدر أن يفهم
سبب ذلك الاجتماع

الفصل الرابع والاربعون

الصدقة الحقيقية

وبعد أن تطارحوا الحديث مدة بادر غريب الأمير سعيداً بالحديث قائلاً
يا حضرة الأمير اننا جئناك في هذه الليلة لأمر ذي بال وأملنا أنك لا تردنا خائبين
قال تفضلاً فإن امر كما على الرأس والعين
قال غريب إني قد جئت التمس منك أن تسمح بابتك السيدة سعدى لأخي
سالم آغا البطل الصنديد والشهم الغيور وإذا كنت لا تعرفه أخبرك أنه ممن
خصهم الله بالشهامة والنخوة ولعل إبراهيم باشا يكون قد أخبرك عنه ما فيه
الكفاية وما قصدنا بهذا الطلب إلا التشرف بالقرب من ساداتكم فإن السيدة
سعدى جوهرة ثمينة لا مثيل لها ونحن نعلم أنها تعز على كثيرين غيرنا ولكن

ثقة بلطفكم واسكن مراعاة لحاظنا لا تضمنون بهذه المنة
فهذه سالم آغا لهذا الخطاب لعله ان مسألة خطبته لم يتكلم بها احد غير
ابراهيم باشا ولم يعلم بها الا الامير سعيد وحده . ولم يكن الامير سعيد اقل
اندهالا لعله ان غريباً كان قائماً على سالم آغا من اجل تلك الخطبة فوقع
الاثنان في حيرة . وشعر غريب بذلك فاستدريهما بالكلام قائلاً لا تمحاً من
توسطى في هذا الامر فان الأخ يحب ان يساعد اخاه في مثل هذه المهمة وانا
احسب نفسي سعيداً إذا تم هذا الامر على يدي
ثم خاف غريب ان سالم آغا اذا عرف الحقيقة يتنازل عن الفتاة لأجله وطلب
الانفراد بالامير سعيد ولما خلا به قال له

اعلم يا حضرة الامير اني كنت عازماً على الاقتران بالسيدة سعدى و كنت
انتظر تلك السعادة بفروع صبر حتى انى لما احببتي بان عيري يريدها نعمت
عليه وصممت على الايقاع به ثم علمت ان الرجل من أعر اصدقائي بل هو أحي
وقد ابقذني من الموت واطهر من الشهامة ما لا أساء مدى العمر وطلما كنت
أعنى أن اكاؤه على جميله فلما علمت انه يرعب في الاقتران بالسيدة كرميكم
نعلبت على عواطفي وحثت برفقته لأساعده في ما يريد وهو لا يعلم بما حرى
وهل لك ان توافقني على زفافها اليه وان يكن ذلك مخالفاً لعوائد الامراء في
حفظ الزواج في عائلتهم لابنائها

فتعجب الامر سعيد من هذا الخطاب وقال لغريب بالحقيقة اني لم أشاهد
مثل هذه الشهامة قط وهكذا تكون الرجال وعليه فاي طوع أوامرك .
لكسني كنت فاتحت ابنتي بهذا الامر الآن فرأيتها تحيل اليك ميلاً حقيقياً وقد
قصت عليّ ما حرى لها معك يوم احاط بك اولئك الفرسان ونجوت منهم
وأثبت هذا البيت فرأت منك لطفاً وفصلاً اوجباً اعتارها لك وأخذى أهما
لا توافق على استبدالك عن رضى

فقال غريب اني شاكر لمحبتها لى وأؤكد لك ان عندى اضعاف ما عدها
ولذلك كنت صممت على طلبها منك وقد صبرت على ما في قلبي مدة طويلة كما
علمت ولكن التقادير لم تكتب لى نصيباً بها ولذلك فاما من هذه الساعة

اعتبرها شقيقة لى وأحبها محبة الأخ لأخته وأرجو ان تلح عليها في قبول سالم
آغا فانه من الافراد الذين يعز مثالمهم وأؤكد لك أيضاً ان اخي سعدى ستر
به وتسكون سعيدة بالعيش معه وزد على ذلك انك تقول ان ابرهيم باشا طلب
اليك هذا الأمر فتكون قد عملت بامرره واتقيت غائلة غضبه فانه رجل غضوب
سريع الانتقام والتمس منك في كل حال ان لا تدع سالماً يعلم بسابق قصدي
مطلقاً

فتقدم الامير سعيد الى غريب وقبله قائلاً لله درك أيها الشهم فاني لم اشاهد
عمري مثل هذه الشهامة فانا افعل كل ما تأمر به

فقال غريب ولكن هل لك ان تحييي على مسألة قد اشكلت علي وكانت
السيدة سعدى قد وعدتني بالاجابة عليها ولكن ربما كنت عالماً بها فتجيني
عليها وهي اني لم اقدر اعرف من هو الفارس الذي خرج لمعاونتي على أولئك
المرسان ولما سألت سعدى قالت انها ستجيني على ذلك في فرصة اخرى

فتبسم الامير سعيد قائلاً لا أخفى عليك انها هي التي نادتك وحذرتك ولما
كنت أنت في تلك المعركة كانت هي تنظر اليك من إحدى الواقد فلما رأت
ما أحقق بك من الخطر ولما لم يكن في البيت من الرجال من تبعه لافذاك
تريت هي بزي الرجال وزلت بنفسها لتنشيطك ولكنها لم ترد ان تقول لك
ذلك حياء منها

فتعجب غريب لهذه الفتاة ولهذه الحصال الشريفة التي فيها وكيف أنها
جمعت لطف النساء وشجاعة الرجال وشهامتهم وحدثته نفسه بالعود الى عزمه
الأول والاقتران بهائم لما ذكر صداقة سالم آغا وفضله عليه استسهل كل صعب في
سبيل مكافأته وقال للامير سعيد اني متمن لها وقد رأيت انها بذلك تليق ان
تكون زوجة لصديقي سالم آغا

وكان سالم آغا قد ارتاب في أمر استدعاء غريب للامير سعيد وانفراده به
مدة طويلة وفيما هو مفتكر في ذلك دخل عليه الخادم بالقهوة فتناولها وكان في
أثناء ذلك ينظر الى فرش تلك المعانة وأثاثها غير ان فكره كان مشتغلاً بامر
غريب والامير ومن جملة ما خمنه ان الامير سعيداً من اقرباء غريب القرييين

وقد اختلنا يتباحثان في هذا الامر لعوائد عائلتهما فلما أتم شرب القهوة ارجع
العنجان الى الخادم وسأله قائلاً

هل الامير غريب من أقارب سعادة الامير

قال الخادم نعم ياسيدي فان كليهما من عائلة بني شهاب ولعل القرابة بعيدة
ولكنها ستصير قريبة

فارتاب سالم بهذا الجواب وراجع قائلاً وما تعني بذلك

قال بما ان ... وتوقف عن الكلام ونظر الى باب الغرفة لئلا يكون أحد

قادمًا فلم ير أحداً فقال بما أن مراده ان يحبط اية الامير سعيد له

فتعجب سالم آغا لذلك وكادت تغلب عليه عواطفه فتجلد وأعاد السؤال قائلاً

هل أنت متأكد ذلك فقال الخادم بصوت منخفض نعم اني سمعت والدها

يكلمها بهذا الشأن اليوم قبل الغروب بقليل

فانذهل سالم آغا ودخله شك في مرافقة غريب وما أبداه من الحديث

أمامه وقال في نفسه يظهر انهما اختلنا للمحادثة في ذلك ويجب علي أن اتنازل

عن الابنة لعريب لأنه أحق مفي بها إذ هي من أقاربه وامثاله

وفيما هو في ذلك دخل الامير سعيد وغريب يلوح على وجهيهما علامات

السرور والانبساط فوجدا سالماً مرتبك الافكار فلما جلسا قال الامير سعيد

لسالم آغا بالحقيقة اني مسرور جداً لما سمعته عن جنابك من الامير غريب

ولذلك أعد نفسي سعيداً اذا اتبع لابنتي أن تكون خادمة في بيتك وايس

فقط زوجة لك فأنا من الآن ادعوك صهري

فاجاب سالم آغا قائلاً اني مديون لجناحك بواجب الشاء على هذه المنة أيها

الامير الكريم وكذلك لصديقي الامير غريب ولكني في غاية الحجل منك

الآن لأمر تذكرته ولم يكن في الحسبان فقال الامير خير ان شاء الله . فقال

سالم لا أعلم اذا كان حيراً أو شراً وإنما طرأ علي الآن اني مسافر من هذه

الديار في أقرب وقت الى حرب ولا أعلم اذا كنت أعود منها حياً وباء عليه

أرى الأوفق ان نؤجل أمر هذا الاقتران حتى أعود

فقال غريب وما هو هذا السفر الآن

فقال سالم آغا أنت تعلم ان الدولة لا تزال تسعى في اخراج ابرهيم باشا من هذه الديار وان تكن بظاهر الأمر ولته إمامها فلا تلبث أن تبعث له جنداً كبيراً لاخراجه لأن الدول الاحنية غير راضية ببقائه هنا

فقال غريب هب ذلك صحيحاً فاني اسعى بما في وسعي في اخراجك من جند ابرهيم باشا وحروبه وتبقى معنا هنا نعيش معاً وتتخلص من الحروب على اني لا أظن ابرهيم باشا قد طلب زواجك بدون ان يكون قد صمم على اعفائك من الاسفار

فلما أخفم سالم آغا حار كيف يدفع عن نفسه وكان قصده بتأجيل الاقتران التنازل عن الفتاة لغريب فطلب الانفراد بغريب فانفرد فقال له اني في غاية العجب مما ظهر لي منك هذه الليلة فلا أدري من اخبرك بعزمي على الاقتران بابنة الامير وقد زاد عجبى لما علمت انك طلست الابنة لنفسك فلماذا لم تقترن بها فقال غريب إن السبب كون الامير بشير لم يرد ذلك لتنافر بينه وبين والدها

فقال سالم آغا انا اسعى في ازالة هذا المور وذلك أمر سهل قال غريب ذلك النفور لا يمكن ازالته ولم يعد ممكناً لي الاقتران بها فهي نصيبك وأرجو أن لاتراجعني في هذا الامر لان اقتراني بها اصبح مستحيلاً فالاولى أن نأخذها أنت فانها تليق بك

الفصل الخامس والاربعون

ابرهيم باشا في سوريا

فرأى سالم أن لا فائدة من مقاومة غريب في هذا الامر فوعده انه يجري كما يشاء وان غداً لناظره قريب وتواعدا على أن يأتيا لوضع عربون الخطبة غداً وقد أضرر سالم أن يتخلى عن الفتاة لغريب على كيفية لايتى معها باب للجدال

ولما كان الغد جاء غريب الى مكان اللقاء ليذهبها معاً لوضع العربون وانتظر

سالمًا ساعات فلم يأت فانشغل ناله عليه كثيرًا ولما كان المساء ذهب الى البيت وهو في شاعل بشأن سالم وتغيبه

وفي المساء التالي فيما كان غريب في صحن السراي يفكر في أمر سالم واذا به قدم وهو يتشم فساله غريب عن أمره فقال لم استطع المحي. أمس لاني كنت مهمكا بحملة الزواف فقال وأي زواف تعني قال قد عقدت على إحدى البنات أمس فانا الآن متزوج

فعجب غريب لذلك واعترضه قائلاً ماذا تعني وانا في انتظارك سحابة أمس لكي نذهب لوضع عربون الخطبة فلم نأت فقال سالم هلم نضع العربون لمن يريد الزواج أما انا فقد تم أمر زواحي ولا أحب الضرائر

فادرك غريب أن سالم آغا تزوج حتى لا يبقى مجال للكلام في زواف سعدى الى غريب فقال له أيليق ذلك بك . قال لا يليق بي إلا هذا . وهذه سعدى عروسك بارك الله لك فيها وأن فرحي وسروري اما هو باقترانك بها وأنا اعلم أنها لو خيرت بيننا لما اخنارت سواك فلا يليق بي أن أمنعها من تحبه وهما قد قضى الامر فيها لما نضع عقد الخطبة لك

فقال تعال نقضي هذه السهرة معاً الليلة وأعرفك بوالدي ونرى ماذا يتم عليه الأمر واني لمعجب بشهامتك ومروءتك وهم سالم به وقبله وقال والله لا أراني الا مقتبساً من بحرك ولم أسمع أن شاكاً تحلى عن حيثته لاحد سواك

وكان والدا غريب في حديث غريب وحكاية الخطبة وما يتعلق بها وبما هما في ذلك سمعا وقع اقدام عند باب الصحن وإذا غريب قد دخل ومعه رفيقه فنادت سلمى « غريب » فقال نعم يا أماء فقدمت إليه ورأت سالمًا معه فارادت الرجوع فبأداها قائلاً لا حاجة الى الترحيب فان الذي تريه معي من أعز اصدقائي بل هو اخي بعهد الله . فقدم وعرفه بها وبأبيه وقص عليها ما كان من أمره وأمر زواحه ومافي عمله هذا من الشهامه والنحوه فاعضا به وازدادا محبة له وفرحا في باطن سرهما لانهما كانا يخافان الفتاة فحمدوا الله على ذلك . ثم

أخذ الجميع يتمشون في ذلك الصحن في تلك الليلة المقمرة الصافية الجو وقد طار نومهم

فقال غريب يظهر أن هذه الليلة بهية فلا يحلو فيها الا السهر فامر أحد الخدم بخاءم بالوسائد ليجلسوا في ذلك الصحن في ضوء القمر فجلسوا وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث بعد أن ملأ أمين بك غليونيه وملاً غليوناً لكل من سالم آغا والأمير غريب وأمروا باحضار القهوة

فقال سالم آغا كنت أظن ان الامير بشيراً والد أخي غريب

فقال غريب نعم هو والدي بالتربية وأما والدي الحقيقي فهو هذا الشيخ ثم استأنف الحديث قائلاً لوالده هذا هو الرجل الذي انقذني من سجن عكا كما أخبرتك منذ بضع سنين

فقال أمين بك ويظهر لي من ملابس جنابه أنه من ضباط ابراهيم باشا ونعم الرجل هو فانا بالحقيقة قد أصبحنا غريبين بحار معروفه فنطلب من الله أن يقدرنا على مكافأته ثم قال وهل الجنود المصرية المؤيدة ستقيم طويلاً في لبنان فقال سالم آغا لا أظن لها فائدة بالاقامة هنا بعد أن تجمع اسلحة الدروز وقد علمت انهم سيجمعون أسلحة النصارى أيضاً توطيداً للامن

فقال أمين بك وهل تظن ابراهيم باشا خائفاً من خروج هذه الديار

من يده

قال لا شك انه يخاف لأن الحكومة العثمانية وان تكن قد ولته هذه البلاد باوامر شاهانية حسب اقرار مؤتمر كوتاهية الذي عقد في ١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ الا اني أرى ذلك الحكم لا يدوم له لاسباب كثيرة منها أن الباب العالي لم يوافق على ذلك الا بناء على ايقاف ابراهيم باشا عن التقدم الى بر الاناضول والتعدي على املاك الدولة هناك والذي اراه من مطامع هذا البطل اعظم من ذلك كثيراً فقرأ على كثرة ما يقاسيه من القلاقل من ثورات أهالي سوريا المناصلة لا ينفك ناظراً الى ما وراء ذلك ويخشى انه لا يفوز في بر الاناضول كما فاز هنا إذ ليس له هناك عضد مثل سعادة الامير بشير . فقال أمين بك يا للعجب لهذا الرجل الباسل فاني أراه أشجع من أبيه

فقال سالم آغا قد سمعت الناس يتحدثون بشجاعة ابيه ايضاً وانما الفرق بينها على ما يظهر ان والده أرق جانباً وأحسن سياسة منه أما هو فاقرب الى رجال الحرب من أبيه فمحنة الناس لايه مقرونة بالاحترام أما محبتهم له فمقرونة بالحواف وقد شهدته في عدة وقائع يبلاد اليونان وعجبت لاسالته ولولا الممارتان الانكليزية والفرنساوية اللتان تغلبتا على عمارته في نافرين لكان فوزه هناك تاماً مع ما أظهره اليونان من الهمة والنشاط والغيرة الوطنية

الفصل السادس والاربعون

حرب المورة ونكبة الانكشارية

فقال غريب ما سبب ثورة اليونان الحقيقي هل تعرف عنه شيئاً
فقال سالم آغا نعم لاني أخذت الى تلك الديار وريت فيها . وقد كانت بلاد اليونان ولاية من ولايات الدولة العلية غير أن الشعب اليوناني شعب قديم وكانوا لايفترون عن ذكر دولتهم القديمة وما كان من ربيع مجدها وعظيم سطوتها واتفق في ذلك العهد أن ولاية السرب التي كانت من ولايات الدولة استقلت باحكامها استقلالاً محدوداً بمساعدة الدولة الروسية لارتباطها معها بجامعة الدين والجنس

فلما رأى اليونان ذلك ثارت في نفوسهم محبة الاستقلال فآخذوا يتكاثبون في سائر انحاء العالم لان الشعب اليوناني كثير الاسفار كما تعلمون فآلفوا جمعية سرية في روسيا والنمسا وبلاد اليونان وغيرها وكانوا يدخلون فيها كل الشبان اليونانيين ودعواها « جمعية الاصدقاء »

وقد كنت أنا في اثينا خادماً في أحد بيوت الاعيان وسني في نحو الخامسة عشرة فدعيت يوماً مع سيدي « لانعجبوا لقولي اني كنت خادماً لان ذلك لم يكن باختيارى كما سأخبركم » فلما وصلنا الى محل الدعوة ودخلنا قاعة مفردة قد اجتمع فيها عدد غفير من الرجال اليونانيين وفي صدرها رجل حالس أمامه مائدة فوقها كتاب أظنه التوراة فدعانا كل واحد بمفرده فلما دنوت منه قال لي

ضع يدك فوق هذا الكتاب ففعلت ثم أخذ يلقي قسماً أذكر منه ما يأتي :
 « افسم بحضرة الآله الحقيقي قسماً ثابتاً اني سأواظب على الامانة والاخلاص
 للجمعية الاصدقاء في كل الامور واني لا أبوح بشيء من أعمالها أو أقوالها ولا
 أدع أحداً من أصدقائي أو اقربائي يعلم اني عالم بوحودها وأفسم اني سأنتهي
 البغضة التي في قلبي للمستبدین بوطني واتباعهم ونصرائهم واني سأتحذكل وسيلة
 لابادتهم. واخبراً أقسم بك ياوطني المقدس العزيز وبما قاسيته من المشاق والعذاب
 وبما سكبهُ أولادك من الدموع السخينة أثناء عدة قرون واقسم بما انتظره من
 الحرية المستقبلية لك أن أقف نفسي لاجلك وأن أجعلك من الآن فصاعداً
 محور افكاري ومقاصدي وأجعل اسمك نبراسي في جميع اعمالی واكتفي بسعادتك
 جزاء لانعابي »

وأقسم عين هذا القسم جميع من حضر وقد علمت ان منشأ هذه الجمعية
 كان في أديسا تحت رئاسة رجل يقال له نقولا سكوفاس أحد تجارها فيظهر
 أنها كانت بدسية روسية

وبقيت الامور على ما هي الى مارس سنة ١٨٢١ فابتدأت الثورة في ولايات
 الدنوب بدأ بها ضابط يوناني في خدمة الجنود الروسية حتى آل الامر الى نشر
 علم العصيان في جهات الدردنيل وكانت الاستانة إذ ذاك في اضطراب عظيم
 لا تقسام أربابها بعضهم على بعض حتى ان بعضهم سعى في حرقها فلما علم أهلها
 بما فعله اليونانيون احتدمت في قلوبهم شعلة التعصب حتى بلغنا ذات يوم ان
 بطريك القسطنطينية عريغوريوس ذبح عند باب الكنيسة في عيد الفصح
 وان جثته اعطيت لليهود يحرقونها في الاسواق ثم علمنا بمقتل غيره من
 الكليركيين

فاشتعل اليونانيون غيظاً وجأهروا بالعصيان والانتقام من الدولة فلاح
 لجلالة السلطان محمود إذ ذاك أن يتخذ جدياً نظامياً يعتمد عليه في الحروب على
 مثال ما فعل عزيز مصر فاعترضته جنود الانكشارية وحضرتمكم تعلمون ان
 هذا هو الجند الذي أنشأه السلطان اورخان منذ خمسمائة سنة من أولاد
 الاسرى النصاري المفصولين عن والديهم قبل سن الحلم وكانوا يعلمونهم

ويثقفونهم على الديانة الاسلامية وعلومها وقد باركهم حاجي بكطاش مؤسس دراويش الطريقة البكطاشية ونموا وتكاثروا وكانوا عوناً كبيراً للدولة في سائر حروبها وفتوحاتها لكنهم أصبحوا حملاً ثقيلاً على عاتقها لفساد أمرهم وعمرهم

فلما أراد السلطان محمود اتخاذ النظام الحديث في حربه اعترضه هؤلاء لانكشارية فلاح له أن يسعى في التخلص من شرهم فجمعهم مرة في ساحة أتميدان فلما اجتمعوا طلب رؤوس زعمائهم فاعترض جميعهم على ذلك الطلب وكان السلطان قد صمم على اتحاد الوسائل القطعية فاما أن يقدم أو أن يذعن لهم فلما رأى منهم ذلك العصيان أمر بدشر السنجق الشريف وهو العلم النبوي فاحاز اليه جميع المسلمين الا العصاة فنقل السنجق الى جامع احمد بقرب اتميدان وورفته السلطان وحاشيته وقضاة العاصمة وجميع المحازن الى العلم وهناك أخرج السلطان فتوى بقتل الانكشارية فقتلوا في ثلاث ساعات وتخلصت الدولة من شرهم

فقال امين بك قد سمعنا بقتل الانكشارية كما سمعنا بقتل الامراء المالك بمصر منذ خمس وعشرين سنة فكان السلطان محموداً قد فعل ذلك اقتداءً بوزيره محمد علي عزيز مصر ومثل ذلك تدريبه الجند على النظام الجديد . فلما ذكر المالك تأوّه سالم آغا تأوّهًا خفيًا وقال :

أما اليونان فبقوا ست سنوات يحاربون الدولة العلية بمساعدة سرية من الدول الاوربية وفي آخر الامر جاهرت تلك الدول بالتوسط وهي روسيا وانجلترا وفرنسا وعقدوا مؤتمرًا في لندرا في ٦ يوليو (تموز) سنة ١٨٢٧ من مقتضاه أن يتحرر اليونان وألحقوا هذا القرار بعهودهم لتنفيذ ذلك بالقوة الحربية فتنتحت الروسية وتقدمت العمارتان الانكليزية والفرنساوية الى نافارين حيث كانت العمارة العثمانية تحت قيادة ابراهيم باشا فحصلت واقعة في ٢١ اكتوبر سنة ٢٧ انكسرت فيها عمارة ابراهيم باشا وتم استقلال اليونان أما أنا فقد كنت في نافارين قبل مجيء العمارتين فزلت الى ابراهيم باشا وسلمت له خاضعًا

الفصل السابع والاربعون

ان وراء الائمة ما وراءها

فقال امين بك بالحقيقة أنك افدتنا افادة عظيمة عن استقلال المورة أو اليونان ولكن اسمح لي ان اسألك سؤالاً ربما كان تطفلاً مني وإنما الاخوة التي بينك وبين ولدي غريب تجربتي عليه قال سالم آغا تفضل

قال امين بك ان تركك اليونان في حال فوزم وانحيازك الى ابراهيم باشا لم أره ينطبق على حكم العقل أما كان الافضل لك البقاء هناك مستقلاً

فعند ذلك تنفس سالم آغا الصعداء وقال قد تركت تلك البلاد إذ ليس لي فيها أرب وليست هي وطني ولا لي فيها أهل وانما توجهت اليها بحكم الاتفاق طوعاً لمطامع القرصان وقد باعني بعضهم فيها بيع الارقاء وكنت مدة اقامتي فيها اغتيم فرصة أتمكن بها من المود الى بلادي لعلني اشاهد أحداً من أهلي فلم استطع ذلك الا عند مجيء ابراهيم الى اليونان كما قلت لحضرتكم

فقال غريب يظهر أنك خرجت من بلادك صغيراً وعدت اليها كبيراً فهل عرفك اهلك عند ما شاهدوك

فتنهذ الرجل وتأوه وخنفته العبرات فتعجب الجميع من حاله ولم يفهموا سبب بلباله

فاستأنف غريب الحديث قائلاً لقد أقلقتنا بتأوهك فهل لك ان نخبرنا عن سبب اضطرابك لعلنا نقدر على غوثك

فقال اني أتأوه لأنني رجعت وبعد المشقة والتعب لم أقف لوالدتي المسكينة على أثر . فقالت سلمى واحسرتاه على الامهات وشقائهن فهل تعلم والدتك الآن أنك في قيد الحياة

قال سالم آغا لا يا سيدتي لا أظنها تعلم على اني لا أعلم اذا كانت هي على قيد الحياة بعد ان غبت عنها نحواً من خمس وعشرين سنة

قالت سلمى لا شك أنها اذا كانت حية تكون قد يئست من وجودك
ولكني أراك تذكر والدتك ولا تذكر والدك
فقال لأنني تأكدت أن والدي قد مات

فقال غريب ولكن يا أخي هل فتشت عن والدتك فأين تركتها
قال تركتها في مدينة عكا منذ ٢٥ سنة وقد فتشت عنها هناك طويلا فلم
أقف لها على أثر

فلما سمعت سلمى كلمة عكا خفق قلبها لأنها تذكرت ما أصابها في تلك المدينة
التي فقدت فيها ولدها سليماً ونظرت الى زوجها نظراً خفياً كأنها تذكره
بتلك المصيبة خفية عن غريب فرأته يتهدأ عميقاً وهو ينظر اليها
بطرف عينه

فقال غريب هل أنتم في الاصل من أهل بر الشام قال لا وإنما نحن يا أخي
من سلالة قوم افاضل من مصر قتل والدي هناك وحملتني والدتي وكنت في
السابعة من العمر حتى أنت بي عكا وهناك نزلت في قارب وحدي للنزهة
فقدفتني الامواج الى البحر فمر بي مركب يوناني أخذني وباعني بقطانه بيع
الارقاء الى أحد التجار في ناورين فريت فيها حتى كبرت وتم لي ما قدمت
فازداد خفقان قلب سلمى لما رأت من المشابهة بين هذه الحكاية وحكايتها
وأرادت التكلم فلم تستطع فبقيت باهتة مادة عنقها اصغاء لنهاية الحديث
وكذلك زوجها

فقال غريب يا للعجب ونحن أيضاً من بر مصر وقد أصابنا تقريراً مثل
ما أصابك فما اسم والدك لعل والدتي يعرفه
فقال سالم اسمه امين ووالدتي الاميرة سلمى

فصرخت سلمى ولدي سليم حبيبي مهجة كبدي ورمت نفسها عليه وجعلت
تقبله حتى اغشى عليها وكذلك زوجها فبهت سالم لذلك ولكنه تحركت فيه
العواطف حالا وتذكر صورتها بعد مضي هذه المدة من الزمان وتراى على
أيديهما وجعل يقبلهما والدموع تنساقط من أعين الجميع من شدة الفرح
فبهت غريب لذلك لأنه لم يكن يعلم ان له أخاً يدعى سليماً ولكنه اهتم برش

الماء على أبيه وأمه فلما نهضا كررا القول ولدي سليم حبيبي . فقال غريب
ما هذا العمل من أين نبت لنا هذا الأخ ما بال الدهر يأتينا كل يوم نبأ جديد
فانهضهم غريب الى الغرفة حيث كان النور مشعلا وجعل يتأمل أخاه سليما
ولما علم حقيقة انه احوه أخذ يقبله ويعانقه

ولا تسئل عن قلب الوالدة والوالد في تلك الحال وكان الجميع يحسبون
انهم في حلم

وكان سليم أفل ذهولا من والدته لانه كان قد يؤس من الالقاء بها وعلى
الخصوص بآبيه فقضوا تلك الليلة بالاحاديث عما جرى لهم فكان كل منهم يقص
حكايته ولم يناموا مطلقاً فلما أصبح الصباح سار أمين بك لاعلام الامير بشير
بالقصة وطلب أن يسأل ابراهيم باشا اعفاء سليم من العسكرية وابقائه في
بيت الدين

ثم عاد واخبرهم بالسرور الذي شمل الامير بملقى تلك العائلة المشتتة وبعث الامير
الى سليم (سالم آغا) وهنأه ببقاء أهله وقبل سليم يد الامير قائلاً إن لسعادتك
الفضل الاكبر في جمع شتات هذه العائلة فنحن غرس نعمتكم
وبعد المحادثة مدة استأذن سليم في الانصراف لان الامير كان في اشتغال
بالاحوال السياسية وثورات الدروز على الحكومة المصرية

الفصل الثامن والاربعون

زفاف سعيد

أما ما كان من أمر الأمير سعيد فانه بعد انصراف غريب وسالم من عنده
اختلى بابنته واطلعهما على ما تم وجعل يرعها في خطيها فلم تبد جواباً لا سلباً
ولا ايجاباً فلم يلح عليها بالجواب بل تركها وفي الصباح عاد فسألها عن رأيها في
ذلك فترددت برهة ثم قالت انها لو لم تكن قد أحببت غريباً ما الفت نفسها الى
الموت من أجله الى أن قالت ومن يعرف ذلك الرجل وما هو أصله ووفصله
فقال الامير سعيد ولكن يا ابنتي ما العمل بامر ابراهيم باشا فهل يمكننا

مراجعتة . فبكت الفتاة رغم إرادتها فوق والدها في الارتباك ولم يدر هل يجبر ابنته وحيدته على الاقتران بمن لا تعرفه ولا تميل إليه أم يخالف أوامر ابراهيم باشا فوق في حيرة

ولما جاء وقت الغداء لم تستطع طعاما لشدة كدرها . كل ذلك ووالدها يفكر في وسيلة لانقاذها وانقاذ نفسه من تلك الورطة

وفيما هو في ذلك دخل الخادم يقول أن فارسين في الباب غفرج لاستقبالهما فاذا هما غريب وسليم فرحب بهما كثيراً لكنهما قرأا على وجهه سورة الغضب فلما استقر بهم المقام قال سليم قد جئناك بخبر في غاية الغرابة عندك واظنه يسرك وقد يكون موجبا لذهاب غضبك

فقال الامير سعيد وماذا عسى أن يكون ذلك قال ان نصيب سعدى مقدور لآخي غريب ويسرني ان اخبرك انه اخي من أمي وابي

فتعجب الامير سعيد ولم يفهم المقصود فقص عليه قصة والديه من أولها الى آخرها فعلم الامير سعيد إذ ذاك ان قرابة غريب لبني شهاب انما هي من قبيل الام وأن الاثنين أخوان

ولا تسئل عن قلب سعدى لما علمت بما تم لها من عودة حبيبها اليها وقضوا بقية ذلك اليوم معاً الى المساء فتفاوضوا في أمر الاقتران فقال غريب الاولى أن يأتي والدنا ويدبر ذلك مع سعادتك كما هي عادة هذه البلاد وبعد العشاء والسهر انصرفا الى البيت معاً

وبعد مدة سار أمين بك بعد ان استأذن الامير بشيراً وسارت معه سلمى الى بيت الأمير سعيد واتفقا على وقت الاقتران

وفي أواخر سنة ١٨٣٦ تم الاقتران باحتفال عظيم دارت فيه ألعاب السيف والعصي وركوب الخيل ولعب الجريد حتى اجتمع سائر أهل القرى المجاورة بالعابهم وموسيقام ومشاهير رجالهم وفيهم المهرة بلعب السيف الذين يقطعون عصي الحديد الملفوفة باللباد وفيهم من يقطع الثور الكبير نصفين بضربة وفيهم من تفنن بالسيف حتى انه كان يرمي مسديلا من الحرير الرفيع في الهواء ثم

يضربه بالسيف فيقطعه شطرين الى غير ذلك من العاب السيوف وكان في جملة اللاعبين أشهر الحيلة ولاعي الجريد وغير ذلك من الالعب التي برع فيها اللبنانيون من انواع الرياضة الجسدية

وبالاختصار أن عرس غريب كان باحتفال عظيم جداً دام عشرة أيام كانت بيت الدين في اثنائها كأنها شعلة نار لكثرة الانوار وأما الموائد فلم ترفع لائلاً ولا نهاراً وكل ذلك على نفقة الامير بشير لانه كان يحب أن يجبر قلب ابنة عمه الاميرة سلمى بزوجها وأولادها فان فرح هؤلاء لم يكن يقدر بعد ما قاسوه من التعب والمشقة والاضطار

الفصل التاسع والاربعون

سعيد

ولكن فرحهم لم يكن تاماً لان أمين بك وزوجته وغريب ما انفكوا يفكرون في سعيد خادمهم الامين وما كان من أمره وكيف ذهب ضحية شهامته ومروءته وكأن الفرع الشديد هاج ذكرى أيام الشقاء فانقبضت نفس أمين بك لتذكره الساعة التي ضرب بها سعيداً وشعر بندم شديد لانه لم يرجع على أثر الضربة ويبحث عن جثته لعل فيها رمقاً فكان الاحتفال قائماً والناس في هرج ومرج بين ضاربي الآلات ولاعي الالعب الحربية والمغنين وأمين بك ساكت لا يكلم احداً إلا بما يضطر اليه جواباً على مهنيء أو ردأ على سؤال

وفما هو في ذلك جاءه رئيس الدير المعهود وطى وجهه أمارات البشر وسلم عليه فهم أمين بك بتقيل يده وتأمل به فقال له أراك يا سعادة البك في ارتباك وكدر فما هو سبب ذلك ألا تقول لي . قال لست في ارتباك ولا في كدر لاني بحمد الله حاز على ما كنت أتمناه من جمع الشمل ولكن فرحي لم يتم

فقال الرئيس وماذا ينقصه

قال ينقصه ما لا سبيل اليه وانا الجاني فيه

قال عسى الله أن يفتح باب الفرع فانه على كل شيء قدير

قال أمين بك لاشك انه قادر سبحانه وتعالى وإلا فمن كان يرجو اجتماعنا وقد يبعثر شتاتنا في انحاء الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ولكن ما أرجوه يا حضرة الرئيس بعيد المنال لان الرجل الذي أود اللقاء به أظنه مات وأسفى عليه بل يا لشقاوتى لاني قتلته بيدي . قال ذلك وتساقطت عبراته فتبسم الرئيس وضم امين بك الى صدره وقال اظنك تعني سعيداً فانه لم يمت بل هو حي يرزق

فبغت أمين بك ولكنه عاد فظنه يقول ذلك على سبيل المجاملة في تخفيف الاحزان فقال لا أظنه إلا ميتاً لان الضربة كانت قاضية فقال الرئيس لا بل هو حي يا ولدي وإذا لم تصدق أريتك اياه رأي العين فظنه امين بك يمازحه تخفيفاً لكربه فقال بالله دعنا من إثارة الاشجان فاني لا ارجو رؤية سعيد ولا في المنام ولكن شخصه نصب عيني سحابة النهار وبعض الليل

فقال الرئيس بل أقول لك الواقع ان سعيداً الآن في الدير عندي وقد جئت لابشرك بقدومه

فلما سمع امين بك كلامه خفق قلبه وانصب على قدميه مذعوراً وقال اين هو ارني اياه هلم بنا اليه . قال لا حاجة إلى زهابك هأنا ذاهب . قال ذلك وخرج فهرول امين بك إلى سلمى وغريب وسائر أهل بيته وانبأهم بالخبر فكادت قلوبهم تطير من الفرح ولم يصدقوا الخبر لبعده عن المنتظر أما امين بك فاعز إلى مباشري الاحتفال ان يسيروا بالموسيقى ولاعى السيف والخيالة جميعاً بموكب واحد للملاقة سعيد قادماً من الدير وسارت عائلة امين بك برمتها وراء الجميع إلا النساء وقد حولوا احتفال الزفاف إلى الاحتفال بملاقة سعيد وكان العريس في جملة المحتفلين فسار الموكب من بيت الدين وأصوات العازفين والضاربين والخيالة تكاد تبلغ عنان السماء

فلما كانوا في منتصف الطريق قيل لامين بك أن الرئيس وسعيداً قد قدما فتقدم هو وولدها حتى التقوا بسعيد فإذا به قد ترجل وم إلى ركاب امين بك وقبله والتفت يمنة ويسرة لعله يرى غريباً فرآه ولم يعرفه لانه فارقه صبياً وقد

صار شاباً فهم غريب بنفسه وسلم عليه فعانقه سعيد وعيناه تذرغان دموع الفرح وقال لامين بك اشكر الله على هذه النة فاني طالما كنت اتمنى هذا اللقاء وها قد رأيته بعيني فاحمد الله ولكني أراكم قد بالغتم في اكرامي وما انا إلا عبدكم ولست اهلا لهذا الاهتمام فتقدم اليه امين بك وقبله قائلاً ما أنت والله إلا أخ وأعز من الاخ لانك سميت سعيًا لانستطيع مكافأتك عليه فقد كنت سبياً لبقائنا كلنا ولولاك ما بقي أحد منا حياً

فسكت سعيد احتراماً لكلام سيده وبعد ان وقفوا هنيهة في مثل هذه الاحاديث عادوا ماشين على الاقدام والموكب يسير بهم نحو بيت الدين ولكن سعيداً كان في مشيه عرج وقد ظهرت على وجهه ملامح الشيخوخة والكبر فقال له امين بك كم أحب ان أعرف كيفية بقاءك حياً وما هو سبب تأخرك علينا إلى هذا اليوم حتى يثسنا من حياتك

فتنهذ سعيد وقال سأقص عليك الخبر قريباً واما الآن فدعوني ارتوي من مشاهدة سيدي غريب وقد علمت انكم تحتفلون بعمره فما أسعد هذا الاحتفال ثم نظر الى سليم وقد استغربه وقال ولكني لم اعرف من هو هذا الشاب فقال امين بك ألم تعرفه قال لا . لا اظني رأيته قبل الآن او لعل رأيته ولا اذكر فقال امين بك هذا هو ولدنا سليم الذي اضعموه في عكا فهم سعيد اليه وقبله وقال حبيبي أنت سليم سبحان الخالق العظيم فهأنا قد نلت من دنياي فوق ما كنت ارجو لاني لم أرج قط ان ارى سليماً حياً فهذا فوق ما كنت أنتظر والحمد لله . ثم سأل عن سيدته فقيل له هي في خير تنتظر وصوله مع سائر أهل السراي في بيت الدين وما اتموا حديثهم إلا وقد وصل الموكب إلى السراي وخرج من فيها لملاقاتهم وخرج امين بك وسعيد إلى دار الحريم فاذا بالسيدة سلمى في انتظارهم فهم يبدها وقبلها فسلمت عليه ورجبت به وقالت ان فرحي يعودتك اكثر كثيراً من فرحي باقتران ولدي غريب لانك الصديق الغيور . فشكر فضلها وقال العفو ياسيدي بل انا عبدك وخدامك ثم جلسوا جميعاً وقد عاد الموكب الى الاحتفال بحفلة الزفاف وتضاعف الفرح والسرور

أما امين بك فما زال منشغل الخاطر في كيفية نجاة سعيد وسبب تأخره

الى ذلك الوقت فلما استتب بهم الجلوس قال امين بك لسعيد بالله الا انبأنا بكيفية نجاتك وكيف كانت عاقبة تلك الضربة خيبها الله

فقال سعيد لم افق ياسيدي إلا وأنا مغلول في مكان كالسجن وحولي جماعة السودانيين من اهل شندي يتممون وقد فهمت من مجمل كلامهم انهم علموا بانى لست من اخوانهم واستدلوا على ذلك من خطابى لك وانت شاهر السيف وقادم إلى قبلى وكنت اسمع رطابتهم واباين اليقظة والغيوبة ثم رأيتهم جاءونى بلبن ودقيق ضمدوا بها جراحي ولكنهم ما لبثوا ان جاءهم الخبر بقدم الجنود المصرية للانتقام منهم فحملونى معهم مقيداً يريدون الانتقام منى فتقدمت اليهم ان يتركونى وشأنى أو يقتلونى فأبوا تركي مخافة أن أخبر المصريين بمخبتهم ولا أرادوا قتلى لأنهم كانوا ينتظرون أن يستفيدوا منى بعض الاخبار . وكنت قد تشددت قليلا فلما هموا بالمسير غاflتهم ذات ليسة وفككت قيودي وفرت من معسكرهم وكنت أظنهم لم يشعروا بى فاذا بجماعة منهم قد لحقوا بى فاسرعت في العدو وأنا لا أزال ضعيفاً فادركونى وقد انهكنى التعب فساقتونى وأعادوا الاغلال الى رجلى ويدي فعاد المرض الى لشدة ما شعرت به من صغر النفس وضيق الصدر وما زلت على هذه الحال أياماً وم تارة يقيمون وطوراً يرحلون في اواسط الصحراء بين العطش والتعب والجوع في ذات يوم تركونى في مكان كنا نزلنا فيه وساروا ولكنهم فكوا أغلالى قبل مسيرهم وتحنن على واحد منهم فتركه عندي شيئاً من الذرة وقليلا من الماء

فبقيت في تلك الصحراء ضعيفاً نحيلاً لا أستطيع السير ولا اقوى على النهوض فتحققت دنو الأجل فتذكرتكم جميعاً وخصوصاً حبيبي غريب لأنه ربى على ذراعي وهاجت الذكري في اشجانى فأخذت في البكاء والعيول ليلا ونهاراً ولكن تعزيتي الوحيدة في تلك الاحزان انى تحققت بقاء سيدي البيك حيا ورجوت ان يلتقي يوماً ما باهل بيته على انفى تأسفت كثيراً لأنى لم استطع انباءه بمحل وجودم

فقضيت أياماً على تلك الحال لا آكل ولا أشرب إلا قليلا جداً فضلاً عن خوفي واضطرابي مما كنت اسمعه من أصوات الذئاب والوحوش في أثناء الليل

فلما خارت قواي وتحققت قرب الوفاة خفت أن اموت في تلك الصحراء وتذهب جثتي طعاماً للوحوش فديت على رجلي ويدي الى حفرة بالقرب مني وعولت أن أجعلها مرقدي عند موتى فتوسدتها وقد هزل جسمي وجف دمعي من كثرة البكاء

فلما وصل بحديثه الى هذه العبارة ترقرت الدموع في عيون السامعين ولا سيما سلمى وامين

ثم عاد الى إتمام الحديث فقال . ولكن الله نظر الى حالي وضعفي ففتح علي باباً لم أكن انتظره وذلك انني بينما كنت في تلك الحال شاهدت غباراً متصاعداً عن بعد ولم تمض مدة حتى رأيت أعلاماً وفرساناً فعلت أنها شرذمة من الجنود المصرية سائرة في أثر الهاربين فأومأت اليهم بيدي فشاهدني أحدم فهرول إلي وتبعه آخرون فسألوني عن حالي فاشرت اليهم اني من انصارهم ولكنني ضعيف فحملوني الى معسكرهم وعالجوني بما وصلت اليه أيديهم فاراد الله شغائي فلما أكلت واسترجعت صوابي سألوني فأنبأتهم اني كنت من رجال اسماعيل باشا وأخذت أسيراً جريحاً ونصحت لهم أن يرجعوا عن تمقب أولئك الفارين لأنهم لا ينالون منهم وطراً فاذعنوا لمشورتي وعادوا جميعاً الى جهات شندي وأنا معهم وكنت قد عولت اني حالما استطيع السير اسرع في الهجاء الى سيدتي لأرى ماذا تم من أمر سيدي فأقمنا في شندي مدة وأنا لا أزال ضعيفاً لا أستطيع الاسفار وقد لازمتني الحمى واستعصت فمضى علي سنتان في مثل هذه الاحوال وأنا لم أكتشف احداً بمقاصدي ثم انتقل معسكرنا الى مدينة الخرطوم ولزيادة شغائي سقطت وأنا أركب في النقر (نوع من المراكب السودانية) فكسرت رجلي من عند الفخذ فلبثت في الخرطوم أعواماً وغذيت لم يجبر كسرها أولاً لأنني لست شاباً ثانياً لأنني لم أستطع مداواتها كما يجب والانكى من ذلك انها بعد ان كادت تشفي عادت فانكسرت وسبب كسرها انه جاء الخرطوم وال اسمه خورشيد باشا من قبل محمد علي باشا عزيز مصر وأهل السودان كما لا يخفى على سيدي يسقفون بيوتهم بالجلود والقش فلما جاء هذا الوالي جعل يعلم أهل الخرطوم ان ينوها بالاجر (القرميد) فصاروا يصنعون من الاجر كميات

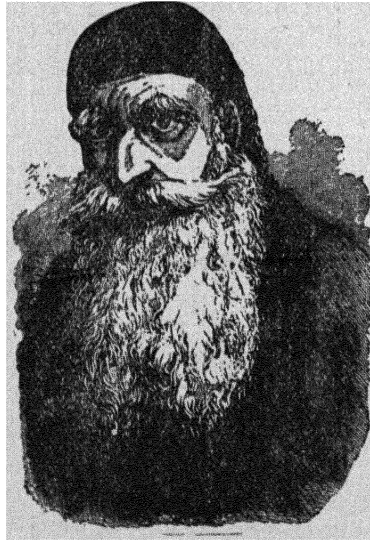
كبيرة وكثر البناء فشعرت يوماً ان غنذي شفيت تماماً فجئت أشتغل في سقف حجرتي فسقت جانباً منه ولكني لم احسن تسنيده جيداً فسقط القرميد علي فانكسرت غنذي ثانية فعدت الى المصابب والبلايا وقد قطعت الأمل من الشفاء لان الكسر اذا تكرر عسر شفاؤه وخصوصاً على من كان مثلي وأراني قد أطلت الحديث عليكم وما نحن في مقام أفاصيص مكدره فاقول بالاختصار اني لبثت أعواماً أخرى وأنا أطيب الكسر ولا م لي إلا أن أراكم حتى من الله علي بالشفاء فقممت من الخرطوم السنة الماضية ومازلت بين راكب وماش اقطع الصحارى والسهول والانهار والبحار حتى وصلت مساء أمس الى الدير المعهود فانبأني رئيسه بما انشرح له صدري وهأنا لقيتكم بخير والحمد لله فحمدوا الله على عودته سالماً وقال امين بك ان سعدى الآن قد تم فلتم الافراح . فأنتموها وزادوها وأنبأوا الامير بشيراً بمجيء سعيد فسرتم سار سعيد لمشاهدته فمدح الامير همته وأثنى على شهامته وكان للاحتفال بقران غريب رنة في سائر انحاء لبنان وانفقت به الاموال الطائلة

الفصل الخمسون

انسحاب الجنود المصرية ونفي الامير وموته

فلما كانت سنة ١٨٤٠ اتحدت دول اوربا مع الدولة العثمانية على اخراج ابراهيم باشا والجنود المصرية من سوريا وبما ان الامير بشيراً كان مجاهراً بالاتحاد مع الجنود المصرية استولى عليه القلق والارتباك وجرت في تلك السنة حروب هائلة انتهت على غير المرام لأن الجنود المصرية اضطرت بعد دفاع عدة أشهر أن تنسحب من الديار السورية وكان الامير بشير محافظاً على اتحادهم مع الدولة المصرية اعتماداً على وعود دولة فرنسا بمساعدته فلما يئس من مساعدتها عزم على أن يسلم للدولة العثمانية وعلم أن تسليمه يستلزم الابعاد عن لبنان فجمع ما لديه من الثمنات في بيت الدين وجمع أولاده وحفدته وسائر اهل داره واتباعه وفي جملتهم المعلم بطرس كرامة وم بالمسير نحو صيدا

فلما علم امين بك وامراته بذلك تفاوضوا في ماذا يفعلون فقر رأيهم على مرافقة الامير الى حيث يتوجه فراققوه جميعا وفي شهر تشرين أول (اكتوبر) سنة ١٨٤٠ وصل الامير بشير وجماعته الى صيدا فاستقبله متسلها خالد باشا بالاكرام وأمره أن يتوجه بحراً الى بيروت فنزل ونزل معه جميع حاشيته وأولاده وعائلة امين بك



الامير بشير شهاب الثاني

فلما وصلت الباخرة الى ميناء بيروت بعث السر عسكر يسأل الامير ان يختار له مكانا يقيم فيه غير سوريا ومصر وفرنسا فاختر مالطة فصدرت الاوامر فاقلعت الباخرة بهم الى مالطة ولا تسل عن عواطف أهل تلك الباخرة عند ما تحققوا أمر ابعادهم من ذلك الجبل الجيد الهواء فظلوا وم في البحر يتأملون برى لبنان الشاهقة وما يكسوها من البساتين والغياض وبما عند سفحه من المباني حتى توارى عن ابصارهم

وبقي الامير بشير في مالطة احد عشر شهراً ثم سار الى الاستانة فلما وصلها نزل باكرام جزيل وفي اليوم الثاني من دخوله دعاه الصدر الاعظم رؤوف باشا

للمقابلة ونظراً لما سبق له من النفور منه لاتحاده مع الجيوش المصرية امر ارباب مجلسه انه متى دخل الامير بشير لا يقفون له تحقيراً لمقامه فقالوا سمعاً وطاعة . اما بشير فاستعد لمقابلة الصدر الاعظم وقد علمت ما هو فيه من الهية وزاده هية الشيب واتساع لحيته واسترسال شعرها على صدره وتدلى حاجبيه فوق عينيه

فلما دخل قاعة الصدارة وقف الصدر الاعظم أولاً ثم وقف سائر الوزراء وبعد ان قضى برهة يتحدث في شؤون مختلفة انصرف فقال الوزراء للصدر الاعظم امرتنا ان لا نقف لهذا الرجل ورأيك أول الواقفين . فقال والله لا اعلم ما الذي أوقفني بالرغم عن ارادتي حالما شاهدت وجه هذا الرجل ولم أكن أظن ان على وجه الارض رجلاً بهذه الهية

وأمرت الدولة للامير بدار في قرية ارناوط كوي على خليج المدينة . وأما غريب فكان مشغلاً عن كل شيء بمناظر الاستانة ومبانيها فانه لم يكن شاهد مثل هذه العاصمة قط . وبالأجمال ان امين بك وسلمى وسلياً وغريباً عدوا انفسهم من اسعد البشر بعد اجتماعهم وقد زوج الولدان واجتمع الشمل وصاروا يشكرون الله على كل حال وفي السنة الثانية توفي الامير ودفن في الاستانة ولم نعد نسمع شيئاً عن عائلة امين بك من ذلك الحين

